الخطط التوفيقية لعلى مبارك

بقلم
الدكتور عبد العزيز الشناوى
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مكانته فى تاريخ مصر القومى :

يتمتع على مبارك بصدارة واضحة بين رواد النهضة العلمية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كان على حظ موفور من العلم وجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ففتح العلم أمامه باب الأمل واسعاً لا حد لسعته ، وباب الرقى طويلا لا حد لطوله . وتقلد العديد من المناصب الوزارية . وهو الذى كان فى مرتع صباه يبيت من الجوع طاوياً . وانطلق يشارك فى توجيه الحياة العقلية للمصريين ويسهم فى تنظيم الجهاز الحكومى وسرعان ما برز بروزاً واضحاً قوياً فى ميادين العلم والتعليم والتربية والتأليف . وغدا يمثل طرازاً فريداً لجهد الوزير العالم ودأب الباحث المحقق .

نشأته الأولى : طفولة مشردة :

ولد على مبارك فى قرية برنبال الجديدة (١) من أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ — ١٨٢٤ م) من أسرة ريفية رقيقة الحال مثقلة بوفرة الإنجاب على العادة الشائعة فى المجتمع المصرى وقتذاك . إذ كان له سبع بنات شقيقات وإخوة ذكور من غير أمه . وعلى مبارك وهو يترجم لنفسه يسوق تسلسل آبائه على هذا النحو : مبارك ابن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى . وظفر جده الأعلى الشيخ ابراهيم الروجى بمكانة سامية فى البلدة فكان إمامها وخطيبها وقاضيها . وتوارث أبناؤه وحفدته هذه الوظائف فعرفت أسرته بعائلة المشايخ . وأضيفت إلى وظائفها توثيق عقود الزواج والرقابة على الموازين والمكاييل .

وكانت حكومة محمد على ترهق الفلاحين من أمرهم عسراً بما تفرضه عليهم من نظام ضريبى جائر . وحدث أن أقطعت الحكومة أسرة المشايخ قسراً عنها قدراً من الأطيان لزراعتها ، وكانت هذه الأطيان مثقلة بضرائب متأخرة وطلبت منها سدادها مع الضرائب الجديدة . واستخدمت مع أفراد الأسرة الضرب والسجن وغير ذلك من وسائل التعذيب « كأسوة الفلاحين

---

(١) توجد فى الوجه البحرى ثلاث قرى تحمل هذا الاسم : احداها فى مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ وتقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد شمالى مطوبس . وبرنبال القديمة وتسمى أيضاً برنبال البحرية وتقع على البحر الصغير بمحافظة الدقهلية . وبرنبال الجديدة مسقط رأس على مبارك .

فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة . وبعد بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشى وأثاثات البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار » (١) فارتحل أفراد أسرة المشايخ عن قريتهم وتفرقوا فى البلاد . ونزل الشيخ مبارك بن مبارك والد على مبارك فى قرية الحماد من أعمال محافظة الشرقية . وكان على مبارك قد بلغ من العمر وقتذاك ست سنوات . ولم يطب المقام للشيخ مبارك إذ لمس أن شعور أهل الحماد نحو الأسرة النازحة شعور غير طيب فارتحل عنها إلى عرب السماعنة وهم من عرب الخيش بمحافظة الشرقية. وعرف عن هؤلاء العرب أنهم يجلون رجال الدين، وكان الشيخ مبارك رجلا صالحاً على ثقافة دينية فظفر بتقديرهم وأصبح مرجعهم فى المسائل الدينية ،وشيدوا مسجداً وعينوه إماماً وطابت له الإقامة فى هذا المرتحل الجديد وانصرف يدبر شئون أسرته .

وكان على مبارك قبل رحيله من قرية برنبال الجديدة بدأ يتعلم على رجل كفيف من أهلها . فلما استقر بأسرته المقام بين عرب السماعنة أسلمه والده إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد أبو خضر ، وعلى يديه استظهر القرآن حفظاً . ولكنه ما لبث أن نفر من هذا الفقيه، إذ كان فظاً غليظ القلب أسرف فى ضربه وإيذائه . وأراد أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ،لكنه أصر على الرفض وعول على الهرب ، وتدخل إخوته فى الأمر وصرح لهم بأنه لا يريد أن يكون فقيهاً وأنه يفضل أن يكون كاتباً نظراً لما لمسه من مزايا يتمتع بها الكاتب « من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام » ونزل الوالد على رغبة الابن ، فعهد إلى صديق له يعمل كاتباً بتعليمه الكتابة . ولكن ما لبث الصبى أن رأى من الكاتب غلظة فاقت قسوة الفقيه ، إذ ضربه يوماً بمقلاة بن شجت رأسه لأنه أخطأ فى الإجابة على سؤال فى جدول الضرب . فآثر على مبارك الهرب على احتمال القهر والضرب والهوان . وكأنه كان يتطلع إلى أسلوب فى التعليم أرقى من الأسلوب العتيق .

حار الوالد فى تعليم الابن . فأحاله إلى صديق آخر من كتبة المساحين كى يقوم على تعليمه ،فلازمه ثلاثة أشهر ثم طرده . لأنه كان يفشى أسرار الرشا التى كان يتناولها من الأهلين ، وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه . ثم وفق الوالد فى أن يجد لابنه وظيفة كتابية هى مساعد كاتب فى مأمورية أبى كبير بمرتب شهرى قدره خمسون قرشاً . وماطل الكاتب فى دفع مرتبه إلى أن تسلم على مبارك يوماً ما حصيلة الضرائب من إحدى قرى مركز أبى كبير ،فاستقطع منها مرتباته المتأخرة عن ثلاثة أشهر وترك له ايصالا بتسلم هذا المبلغ ووضع الإيصال فى كيس النقدية . فنقم منه الكاتب هذا التصرف وأغرى به مأمور المركز واتفق معه على تجنيده واعتقله . وظل فى السجن بضعة وعشرين يوماً وهو مقيد بالحديد . وبذل الشيخ مبارك مساعيه وساعدته الظروف إذ كان محمد على يزور منيا القمح بمحافظة الشرقية . فرفع إليه ظلامة .وأمر محمد على بإخلاء سبيل الابن ، وعاد الوالد بالأمر إلى المأمور يطلب تنفيذه . وخرج على مبارك من السجن ليعين كاتباً عند مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير وكان يسمى عنبر أفندى وجعل مرتبه خمسة وسبعين قرشاً فى الشهر وجراية من الخبز تقدم له كل يوم . ولقى على مبارك معاملة طيبة من عنبر أفندى .

هل يقف السادة أمام العبيد ؟ حوار مثير بين الابن وأبيه

لاحظ على مبارك أن عنبر أفندى رجل حبشى أسود اللون وكأنه عبد مملوك . وزاد من دهشته أن رأى

(١) ترجمة حياة على مبارك بقلمه . الخطط التوفيقية ج ٩. صص ٣٧ – ٦١ .

علية القوم من أصحاب الثراء والحكام ومشايخ البلاد وقوفاً بين يديه وهو يلقى عليهم بالأوامر « وكنت لم أر مثل ذلك قبل ، ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة فى تلك الأزمان . وبقيت متعجباً متحيراً فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد ، ويقبلون أيديهم . وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب » .

وفى اليوم التالى حضر الشيخ مبارك لزيارة ابنه . فقدمه إلى المأمور الذى بالغ فى إكرام وفادته حتى خرج من عنده ولسانه يلهج بالثناء عليه . ودار فى مساء نفس اليوم حوار مثير وطريف بين الوالد وابنه حول عنبر أفندى والأسباب التى قفزت به إلى شغل هذا المنصب الكبير . ولندع على مبارك يقص هذا الحوار « ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور ، فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابنى بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً . فقلت هل يكون العبد حاكماً مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلا عن العبيد ؟ فجعل هو يجيبنى بأجوبة لا تقنعنى ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته . فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الانسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ فقال : يا ولدى كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء . فأقول . مسلم . لكن الأسباب لابد منها ، وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعاراً لم أقنع بها . ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره . وبعد يومين سافر عنى وتركنى عنده » .

أخذ على مبارك بوسائله الخاصة يتقصى الأخبار عن نشأة المأمور واتصل بأحد الخدم المقربين للمأمور وعلم منه أنه كان عبداً اشترته إحدى سيدات المجتمع فى مصر بثمن بخس دراهم معدودة . ولما أنشأ محمد على المدارس الحديثة استطاعت هذه السيدة بمالها من نفوذ فى مجتمع تركى ارستقراطى أن تلحقه بمدرسة القصر العينى الثانوية . وأبلغه الفراش أن خريجى هذه المدرسة يعينون حكاماً . فجاشت فى نفسه رغبة جامحة فى أن يلتحق بهذه المدرسة ، ولما سأله عما إذا كان يدخلها أحد من الفلاحين ، أجابه أن التحاق الفلاح بها أمر ممكن إن كانت لديه « واسطة » فقلق من هذا القيد ولكن لم تفتر عزيمته وأخذ يجمع مزيداً من المعلومات عن المدرسة ، فعلم أن تلاميذها يتعلمون بالمجان وتقوم الحكومة بإطعامهم وإيوائهم وكسائهم ، وازداد إصراراً على الالتحاق بالمدرسة وأخذ يسأل عن مكانها فى القاهرة وطريقة السفر إلى العاصمة ومقدار المسافة التى عليه أن يقطعها وأسماء البلدان التى يمر بها وصحت عزيمته على ترك عمله وطلب الإذن فى زيارة أسرته فمنحه عنبر أفندى إجازة خمسة عشر يوماً ، واتخذ طريقه إلى القاهرة سرباً .

نقف هنا وقفة قصيرة لنقرأن عاملين رئيسيين لعبا دوراً كبيراً فى رسم مستقبل حياته ، هما : الآمال الكبار التى داعبت فؤاده وهو لا يزال شاباً يافعاً فأبى أن يقنع بعمل صغير فى معاونة موظف حكومى ومن ثم صمم على المضى فى تحصيل العلم مهما لقى من مشاق وأهوال . أما العامل الثانى فكان حرصه على كرامته إذ ظل حادث سجنه عالقاً فى ذهنه ، وكان يسائل نفسه عما يحدث لو نهج عنبر أفندى المأمور نهج الكاتب وألقى به فى غياهب السجن « واستمرت الفكرتان فى بالى ، وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك ومن أمثاله . وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى

غوائلها » وهذا القول دليل على أنه كان على حظ موفور من عزة النفس والطموح وإباء الضيم .

التحاقه بالمدارس الحديثة :

وبينما كان على مبارك يقطع الطريق إلى القاهرة سيراً على قدميه التقى بصبية مع كل واحد منهم دواة وأقلام ، وعلم منهم أنهم تلاميذ مكتب منية العز ، وأن نجباء تلا ميذ المدارس الابتدائية – مكاتب المبتديان بمصطلح ذلك العصر – ينقلون إلى المدارس التجهيزية – أى الثانوية – دون واسطة « فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب » وتفوق فى دراسته واختير سنة ١٨٣٦ للالتحاق بمدرسة قصر العينى التجهيزية (١) وفى سنة ١٨٤٠ وقع عليه الاختيار لدخول مدرسة المهندسخانة واستمر محافظاً على تفوقه العلمى . وفى سنة ١٨٤٤ أوفد فى بعثة علمية إلى فرنسا أطلق عليها بعثة الأمراء أو بعثة الأنجال لأنها كانت تضم بعض أبناء محمد على وحفدته . وبعد أن أتم سنتين فى باريس عين ضابطاً فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان فى مدرسة المدفعية والهندسة الحربية بمدينة متز Metz وقضى فيها سنتين أخريين تعلم فيهما فن الاستحكامات وجاز امتحانها بنجاح وعين فى الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسى . ولما تولى عباس الأول حكم مصر أمر باستدعاء معظم أعضاء البعثات فعادوا إلى مصر وكان من بينهم على مبارك .

وفى حكم عباس الأول تقلد على مبارك عدة مناصب حكومية وظفر بتقدير هذا الوالى الذى عهد إليه بوضع مشروع جديد للنظام التعليمى فى مصر وأخذ به عباس وأصدر قراراً بالموافقة على لائحة على مبارك التعليمية (١٧ رجب ١٢٦٦هـ – ٢٩مايو ١٨٥٠) ورقاه إلى رتبة عميد وعينه ناظراً لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية حكم عباس. يقول مؤرخ التعليم فى مصر الحديثة إنه «قد أتيح لمدرسة المهندسخانة إدارة حازمة مستنيرة فى شخص ناظرها على مبارك . وكانت الفترة التى قضاها ناظراً لها من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٤ من أحفل الفترات فى تاريخ حياته . والواقع أنها أعدت على مبارك وهيأته للدور الخطير الذى سيقوم به فى إدارة التعليم وتوجيهه بعد ذلك فى عصر اسماعيل وبعد عصر اسماعيل (١) » .

ولما تولى محمد سعيد حكم مصر عزله من منصبه وألحقه بإحدى فرق الجيش المصرى كانت مسافرة للاشتراك فى حرب القرم . وقد لبث فى هذه المهمة سنتين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية واتسعت مداركه وزادت معلوماته . ولما عاد إلى مصر حفت به المتاعب من يمين وشمال وعاش عيشة ضنكاً يشغل وظائف تافهة حيناً ، ويفصل منها أحياناً . وتسوء حالته النفسية ، ويفكر فى العودة إلى قريته ليشتغل فلاحاً . ويفكر حيناً آخر فى مزاولة التجارة . وبينما هو يجهد الفكر فى إيجاد عمل يرتزق منه جاء الموت سعيد باشا فى مطلع سنة ١٨٦٣ وتولى اسماعيل حكم مصر . وعندئذ بدأت حياة على مبارك تأخذ اتجاهاً آخر ، وغدا العالم المغمور المتعطل نجماً يسطع فى سماء البلاد وأصاب فى الحياة العامة النجاح والجاه والمال والمركز السامى .

كان على مبارك زميلا للوالى الجديد فى بعثة الأمراء إلى فرنسا ولذلك كان اسماعيل بهحفياً . فعينه ناظراً

---

(١) نقلت هذه المدرسة بعد سنة إلى أبى زعبل لتحل محلها فى قصر العينى مدرسة الطب البشرى .

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر . عصر عباس الأول وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

لمدرسة المبتديان فمهندساً للقناطر الخيرية وأظهر براعة في توزيع الماء بين فرعي رشيد ودمياط . وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه . وعين كبيراً لمهندسي المعية السنية . وحدث أن ناقش مجلس شورى النواب في نوفمبر ١٨٦٦ السياسة التعليمية وانتهت مناقشاته إلى عدة قرارات هامة كان من بينها إنشاء مدرسة ابتدائية في كل مديرية وتنظيم المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة وإباحة الالتحاق بها للجميع « من عموم الناس بالرغبة بدون استثناء مسلم أو قبطي ، غني أو فقير . » ويتلقى جميع التلاميذ دروسهم معاً ما عدا دروس الدين ، فيفرد محل خاص للأقباط وينتدب غبطة البطريرك أحد القسس لتعليمهم الديانة المسيحية « حيث جميعهم أولاد الوطن » . ولم تكن هذه القرارات سوى مبادىء عامة تحتاج إلى إعداد فني واسع . وهنا تقدم على مبارك ، وكان يشعر بميل فطري نحو التعليم ، للعمل في الحقل التعليمي . فقدم لاسماعيل مذكرة تضمنت آراءه ومعها مشروع لائحة لتنظيم وإصلاح المكاتب الأهلية . وعرفت هذه اللائحة باسم لائحة ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٨) وهي تؤرخ المحاولة الحقيقية الأولى لنظام قومي للتعليم في مصر وأوضح الطريق لمن جاء بعده من دعاة الإصلاح . وقبل أن تتم الموافقة على هذه اللائحة عين وكيلا لديوان المدارس في سبتمبر ١٨٦٧ ثم مديراً له وناظراً للأشغال وناظراً للأوقاف . وجمع كل هذه الوزارات في سراي درب الجماميز ليسهل إشرافه عليها ثم أضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية . وقد وزع وقته بين هذه الوزارات طوال النهار وزلفاً من الليل .

وقد أرسى مبادىء هامة في ميدان التربية والتعليم لاتزال معمولا بها إلى اليوم . وليس هذا المقال مجال التعرض لها . وقد أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج مدرسي اللغة العربية ، ومن المدارس الأخرى التي أقامها : الألسن والإدارة والمحاسبة . كما أنشأ دار الكتب المصرية وأسس أول مجلة ثقافية في مصر الحديثة هي مجلة روضة المدارس. ولئن كانت شهرته ترتكز على أمرين : خدماته في التربية والتعليم ، وتأليف الخطط التوفيقية ، إلا أنه له مآثر أخرى تتصل بمنشآت الري وتوسيع الشبكة الحديدية في مصر وتنظيم القاهرة والمدن الأخرى وغير ذلك من الأعمال الهندسية والعمرانية .

وحدث أن فترت العلاقات بينه وبين الخديو اسماعيل بسبب دس الحاسدين له ، فانفصل عن مناصبه واعتكف في منزله سنتي ١٨٧٠-١٨٧١ ثم أعيد إلى ديوان المدارس ونظارة الأوقاف والأشغال . ولما ألف نوبار باشا وزارته الأولى في أغسطس ١٨٧٨ دخلها على مبارك وزيراً للمعارف والأوقاف . ولما سقطت هذه الوزارة في فبراير ١٨٧٩ خلفتها وزارة الأمير توفيق في ٢٢ مارس وتقلد على مبارك فيها نفس الوزارتين . ولم تعمر هذه الوزارة طويلا وأعقبتها في ٨ من أبريل ١٨٧٩ وزارة شريف باشا ولكنه لم يدخلها وظل وزيراً متقاعداً حتى نهاية حكم اسماعيل .

ولما تولى توفيق الحكم ظل على مبارك بعيداً عن المناصب الحكومية معتكفاً في داره . إلى أن ألف مصطفى رياض باشا وزارته في سبتمبر ١٨٧٩ فدخلها على مبارك وزيراً للأشغال . وفي عهد هذه الوزارة ظهرت مقدمات الثورة العرابية ولم يكن على مبارك من أنصارها ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة . وقد سقطت الوزارة في سبتمبر ١٨٨١ نزولا على إرادة الثوار . وتعاقبت أحداث

الثورة سراعاً وانتهت بالإخفاق ووقوع البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال دخلها على مبارك وزيراً للأشغال وظلت هذه الوزارة فى الحكم إلى أن استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجاً على أمر الحكومة البريطانية لها بإخلاء السودان وكان لعلى مبارك نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفته هذه الوزارة ، ووجد الإنجليز فى نوبار باشا أداة طيعة لينة فقبل تأليف الوزارة على قاعدة إخلاء السودان . ولم يدخل على مبارك هذه الوزارة بطبيعة الحال . وظل نوبار فى الحكم إلى أن استنفد الإنجليز أغراضهم منه ومن وزارته ، فأقيلت الوزارة فى ٧ يونيو ١٨٨٨ ، وعهد توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة جديدة ودخلها على مبارك وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة فى الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمناصب الحكومية إذ آوى إلى داره ، وأخذ ينتقل بين القاهرة وقريته حيث أصيب بداء المثانة فعاد إلى القاهرة واشتدت عليه وطأة المرض إلى أن جاز إلى ربه فى داره بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وهو من الشخصيات المصرية القليلة التى عاصرت حكم محمد على وابراهيم وعباس وسعيد واسماعيل وتوفيق وعباس حلمى . وكانت حياته خصبة حافلة بجلائل الخدمات والأعمال تجعل من صاحبها طرازاً فريداً بين الرجال .

مؤلفات على مبارك :

كان لعلى مبارك فلسفته فى الحياة ، فهو يرى . أن أول واجب يؤدى إلى الشعب هو تعليم أبنائه ونشر التعليم بينهم وزيادة عدد المدارس حتى يصبح نابتة البلاد عناصر صالحة منتجة فى المجتمع . ويمشى مع هذا الواجب جنباً إلى جنب واجب آخر هو وضع الكتب المفيدة . فتأليف هذا النوع من الكتب هدف سعى إليه على مبارك بنفسه ودعا إليه القادرين على التأليف العلمى نهوضا بالوطن وتوفية لما له من حقوق عليهم . ويقول فى أداء هذين الواجبين « ولهذا التزمت فى كل ما تقلدت من الأعمال ، وجميع ماتقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطنى بكل مانالته يدى وبلغه إمكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل ، كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس ، وتعميم التربية والتعليم ، ونشر الكتب المفيدة ، إما بالاشتغال فى تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها » .

وتمشيا مع ما أخذ به نفسه تميز على مبارك بالإنتاج العلمى والأدبى الوفير . ففضلا عن كتاب الخطط التوفيقية له مؤلفات أخرى منها .

١ — حقائق الأخبار فى أوصاف البحار . وقد نشر أول الأمر فى حلقات متتابعة فى مجلة روضة المدارس ثم طبع مكتملا فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) م .

٢ — تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام . طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢) م .

٣ — نخبة النيل فى تدبير نيل مصر . وقد طبع فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) وقد أفرغ فى هذا الكتاب ثقافته الهندسية فى شئون الرى ومشروعاته فى مصر .

٤ — علم الدين . وهو قصة خيالية فى أربعة أجزاء تقع أحداثها فى مصر وأوربا ، ويدور الحديث فيها بين أحد العلماء المصريين من خريجى الأزهر وقد أطلق عليه اسم علم الدين . وبين عالم انجليزى وفد

إلى مصر وتعلم اللغة العربية . ويبدأ الحديث فى مصر ويتخذ العالم الإنجليزى موقف التلميذ من الشيخ المصرى يستوضحه مظاهر الحياة المصرية التى يراها وتاريخ البلاد . ثم يرحل الرجلان الى أوربا فينقلب الموقف تماماً ، وإذا بالعالم المصرى يتخذ موقف التلميذ ويسأل رفيقه الإنجليزى عن كل مايراه فى المجتمع الأوربى . واستهدف على مبارك من وضع هذه القصة عقد مقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة فى الشرق والغرب لتنبيه أذهان أهل الشرق إلى مزايا الحضارة الأوربية الحديثة . والكتاب يزخر بمادة علمية وتاريخية واجتماعية غزيرة ومفيدة وطريفة وتتضمن بحوثاً فى الموالد والأعياد والمواسم والمسارح ويسميها «التياترات» وتعدد الزوجات ومضار تعاطى الحشيش . وقد طبع الكتاب فى مطبعة المحروسة فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م .

٥ — الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان ويحتوى على دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة وغيرها فى مصر القديمة وفى مصر الإسلامية . وقد طبع فى القاهرة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م .

٦ — خلاصة تاريخ العرب وهو كتاب عربه من الفرنسية لمؤلفه سيديو . وطبع فى القاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩١-١٨٩٢) م .

٧ — تذكرة المهندسين .

٨ — تقريب الهندسة .

٩ — طريق الهجاء والتمرين وهو فى جزءين .

١٠ — المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى .

١١ — ومن الكتب التى أشير إليها ولم تطبع إلى اليوم كتاب ضخم وضعه بالاشتراك مع صالح مجدى تناول فيه المؤلفان تاريخ مصر فى مختلف العصور ابتداء من العصر الفرعونى ثم حكم الفرس وعصرى البطالمة والرومان ثم العصر الإسلامى ووصلا فيه إلى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٨) م أى إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى تقريباً وقد ذكر محمد مجدى وهو يترجم لوالده صالح مجدى (١) أن المؤلفين جمعا المادة العلمية لهذا الكتاب فى نيف وأربعمائة كراسة وأنها لدى على مبارك وأنه يغلب على ظنه أنها مهيأة للطبع ، ولكن هذا الكتاب للأسف مفقود لانعرف عنه شيئا .

١٢ — آثار الإسلام فى المدنية والعمران . ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى مبارك باشا إن هذا الكتاب كان آخر ما ألفه على مبارك ، وقد تناول فيه ما أدخله الإسلام من العمران فى البلاد التى انتشر فيها ، وأنه لما انتهى من وضعه وتبييضه أعطاه لأحد علماء الأزهر لمراجعته ، وأن هذا الكتاب محفوظ فى خزانة على مبارك .

الخطط التوفيقية : ملامحها العامة :

وأما كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » فيمثل قمة إنتاجه العلمى وأوج نضوجه العقلى . ويقع فى عشرين جزءاً ، وهو موسوعة عربية كبرى أو دائرة معارف عربية خاصة بمصر . وقد سار على مبارك فى وضع هذه الموسوعة على نهج المقريزى فى خططه(٢). وقد اشتهرت مصر الإسلامية بفن تأليف كتب الخطط . فهذا الفن . كما يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال . فن مصرى أصيل نشأ فى مصر

(١) صالح مجدى هو علم من أعلام مدرسة الألسن أظهر نبوغا فى دراسة اللغة الفرنسية وتعاون مع على مبارك فى الإنتاج العلمى.

الإسلامية ، وفيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية نما وترعرع . وكان الكندى أول من ألف فيه ، ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر يكتبون فى خطط مصر، وكان آخرهم تقى الدين المقريزى(١) واتخذ على مبارك بصورة عامة خطط المقريزى أساساً لخططه التوفيقية ، فتتبع مدن مصر وقراها ، ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولا ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور إلى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر إذا كانت لاتزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت ومرافق عـامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغير . ويقرن هذا الوصف الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز فى كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا فى ثراها . وقد أفرد على مبارك الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ، وخص مدينة الإسكندرية بالجزء السابع ثم أرخ لباقى المدن المصرية فى عشرة أجزاء تبدأ من الجزء الثامن إلى الجزء السابع عشر . وأفرد الجزء الثامن عشر لمقياس النيل منذ عهد الفراعنة حتى القرن التاسع عشر والاحتفالات التى كانت تقام عند وفاء النيل فى مختلف العصور . وفى الجزء التاسع عشر تكلم عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى . أما الجزء العشرون فقد أرخ فيه للنقود المصرية فى العصر الإسلامى .

عرض سريع لمحتوى الخطط التوفيقية :

شرح على مبارك البواعث التى أملت عليه وضع هذه الموسوعة العربية ، فقال إن مدينة القاهرة قد تعرضت لكثير من أحداث الزمن منذ أن شيدت على عهد المعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية وأولهم فى مصر ، فحينا كانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة ، وحينا كانت واهنة واهية . وقال إن المقريزى المؤرخ العربى الذائع الصيت قد شرح فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط ، ما طرأ على القاهرة من تغيير فى معالمها من منشآت وميادين وشوارع وما إليها ، وأسدى بوضع هذا الكتاب خدمة جليلة للتاريخ . ولكن منذ أن جاز هذا المؤرخ إلى ربه فى أوائل سنة ١٤٤٢ لم يحفل أحد بأن يترسم خطاه فيتابع تسجيل التطور التاريخى والعمرانى والدينى والاجتماعى للقاهرة وسائر المدن المصرية على الرغم من الحاجة الماسة الى القيام بمثل هذا العمل ، فقد وقعت منذ وفاة المقريزى أحداث عصفت ببعض معالم كانت قائمة على عهده فاندثرت وكادت تصبح نسياً منسياً ، ونسبت منشآت لغير أصحابها ، كما نفذت مشروعات هامة وظهرت شخصيات قيادية تركت بصماتها فى تاريخ البلاد . ثم يقول على مبارك فى وطنية دافقة «إن معرفة ذلك حق علينا ، إذ لايليق بنا جهل بلادنا ، والتهاون بمعرفة آثار أسلافنا ، التى هى عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر . فهم وإن مضوا لسبيلهم ، قد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم ، وأن نصنع لوقتنا ماصنعوه لوقتهم ، وأن نجد فى طريق الإفادة كما جدوا » . ومن ثم جاشت فى نفس على مبارك رغبة جامحة فى وضع مثل هذا المرجع العلمى ،وقد وصفه فى تواضع العلماء بأنه « كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة وما يتبع ذلك من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » بيد أنه استشعر من أول الأمر ضخامة

(١) دكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر . الطبعة الأول ١٩٥٨ صص ١٠٥ ، ١٠٦

المشروع وصعوبته لما يحتاجه من مجهود مضن ووقت فسيح لايتسع له وقته بسبب أعباء المناصب الكبرى التي كان يتقلدها مجتمعة في يده ، ومن ثم عرض على صفوة من علماء مصر القيام بهذا المشروع العلمي الجليل فلم تلق دعوته استجابة منهم وانتهى به التفكير إلى أنه لامناص من أن ينهض بمفرده بهذا العمل .

* * *

وقد استهل على مبارك الجزء الأول من الخطط التوفيقية بوصف المكان الذى أقيمت عليه مدينة القاهرة كمقدمة لوصف هذه العاصمة مدة الخلفاء الفاطميين ثم انتقل إلى كتابة تاريخ مصر عبر العصور التاريخية منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق فوقف عند سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧— ١٨٨٨ م) أى بعد الاحتلال البريطانى لمصر بست سنوات تقريبا ، وهى فترة اجتمع فيها مجد الوطن وبؤسه والتقى أمله الطالع بشمسه الغاربة . وشهدت البلاد قيام عدة دول وأسرات تعاقبت على حكمها : فأرخ للدولة الفاطمية ثم للأيوبية والمماليك البحرية والمماليك البرجية والحكم العثمانى لمصر والاحتلال الفرنسى وسنوات الاضطراب السياسى التى أعقبت خروج الفرنسيين ثم تولية أسرة محمد على حكم مصر حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر — وعاد المؤلف بعد هذا السرد التاريخى إلى مدينة القاهرة يعين حدودها وتقسيمها الإدارى فى القرن التاسع عشر وعدد أقسام الشرطة والمرافق العامة بها من مستشفيات وصيدليات ومدارس حديثة ومرفق المياه وذكر عدد المساجد والزوايا والربط (١) والخوانق (٢) والتكايا (٣) والأسبلة (٤) والمقاهى والحمامات العامة وموالد الأولياء وعدد سكان القاهرة حسب تعداد ١٨٨٢ وقد بلغ ٣٧٤،٨٣٨ نسمة ثم أورد احصائية طريفة عن أصحاب الحرف فى القاهرة وقد بلغ عددها ٧٥ حرفة . وكانت أكثر الحرف تعدادا هى حرفة الحمارة فقد بلغ عدد أفرادها ١٧٣٩ ، ويلاحظ أن وسيلة المواصلات الرئيسية لعامة الشعب فى القاهرة وقتذاك كانت الحمير . وكان يلى الحمارة — من حيث العدد — النجارون (الدقى) ثم عمال البناء ثم البقالون فالترزية ثم الصرماتية وهم المشتغلون بصنع الأحذية والبلغ وتصليحها . وكان أقل رجال الحرف تعدادا هم الصدفجية اى المشتغلون بتطعيم الأخشاب بالصدف وصانعو المنشات .

★ ★ ★

وفى الجزء الثانى تكلم المؤلف عن شوارع مدينة القاهرة وحاراتها وعطفها ودروبها وما يتبع ذلك من أسواقها . وقد بدأ هذا الجزء بحى الحسينية . وكان يتكلم عن كل شارع من حيث بدايته ومساره ونهايته والأزقة التى تتفرع منه وما بنى فيه من المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة والتكايا والمدارس

---

(١) الربط ويطلق عليها أيضاً الرباطات جمع رباط وهو مكان كان يعد لإقامة المتصوفة فيه وكان بعض الربط يخصص لسيدات المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل العابدات .

(٢) الخوانق ويطلق عليها أيضاً الخانقاوات وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة ثم خصصت لإقامة المتصوفة . وكانت تحبس عليها الأوقاف السخية .

(٣) التكايا جمع تكية وهى مكان يقيم فيه الدراويش من من الأعاجم .

(٤) الأسبلة جمع سبيل مكان يستقى منه المارة بواسطة كوز من النحاس مربوط بسلسلة وكان تحت السبيل صهريج تخزن فيه المياه . كان يقام عادة فوق السبيل مكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة .

والوكائل والكنائس والحمامات والقصور والخانات (١) وتتميز هذه الطبوغرافية الدقيقة بمادة تاريخية طريفة . فاذا تكلم مثلا عن المنحر الذى اتخذه الخلفاء الفاطميون لذبح الأضاحى فى عيد الأضحى وصف وصفا شائقا خروج الخليفة فى موكبه الرائع لأداء صلاة العيد ثم الذبائح التى كانت تنحر فى ذلك اليوم وما يتخلل ذلك من مراسم، ثم الأسمطة التى كانت تمد إلى غير ذلك من صور للحياة الاجتماعية فى مصر أيام الفاطميين — وفى هذا الجزء وصف على مبارك قصر ابن طولون ومدينة القطائع وما طرأ عليها . وقد ترجم فى هذا الجزء أيضا لبعض الوزراء الفاطميين والأمراء المماليك وكبار مشايخ الطرق الصوفية ومن إليهم ممن أطلقت أسماؤهم على بعض المساجد والمنشآت العامة ، كما ترجم لبعض كبار موظفى الحكومة المصرية المعاصرين له مثل عبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة محمود سامى البارودى ، وترجم أيضا لحسين باشا حسنى ناظر مطبعة بولاق الأميرية ، وحجاج الخضرى أحد أبطال المقاومة الشعبية فى مطلع القرن التاسع عشر والذى تميز بالبطولة والفدائية ، ورفلة عبيد أحد كبار التجار فى حى الجمالية . وترجم لشيوخ قبيلة كتامة الذين وفدوا مع الفاطميين إلى مصر . واختتم هذا الجزء بمائة وخمسة وعشرين بحثا تناول فيها شتى الموضوعات فى التاريخ والمجتمع والطبوغرافية وما إلى ذلك مثل أسواق القاهرة القديمة سواء التى كانت قائمة فى شارع مرجوش أو الغورية أو فى شارع الخردجية بخط الجواهرجية ، وخزانة الكتب أيام الفاطميين وخزانة الكسوة بشارع النحاسين وشتى أنواع الخزائن التى كانت قائمة فى هذا الشارع مثل خزانة الفرش وخزانة الخيم والأمتعة والسلاح والسرج وخزانة الطيب والجواهر والطرائف . ثم مشيخة الجامع الأزهر وتجديد بناء المسجد الحسينى وبيان ما أنفق فى سبيل ذلك . ويلاحظ أن الفهرس الموضوع لهذا الجزء يتبع النظام التالى فى ذكر خطط القاهرة مع التقيد بترتيب الحروف الأبجدية فى كل قسم: الشوارع — الحارات — العطف — الدروب — الجوامع — الزوايا — المدارس — التكايا — الأضرحة — الأسبلة — الحمامات الدور — القصور — الكنائس — المكاتب الأهلية — الوكائل — التراجم — المطالب (١) .

★ ★ ★

وفى الجزء الثالث سار على مبارك على نسق الجزء الثانى فتكلم عن بقية شوارع القاهرة ومنشآتها، وبدأ بشارع بين السورين . وعالج المؤلف موضوعين هامين فى هذا الجزء هما الأسطول الحربى المصرى على عهد الفاطميين وقواعده فى دمياط والإسكندرية وغيرهما ، ثم موضوع الرزق الإحباسية الموقوفة على جهات البر ، وأفاض فى شرح أنواعها وتطورها التاريخى . وقد حفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الأعلام فى تاريخ مصر الوسيط والحديث سواء فى دنيا المال والاقتصاد أو فى عالم السياسة أو فى مجال العلم أو الدين أو الحرب أو الإدارة . نذكر على سبيل المثال احمد المحروقى كبير تجار القاهرة وقد ارتبط اسمه بأحداث الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها ثم ابنه محمد المحروقى، والقائد جوهر الصقلى والشيخ محمد مرتضى الزبيدى من أبرز علماء مصر فى القرن الثامن

---

(١) خانات جمع خان وهو وكالة أو فندق معد لاستقبال التجار والحجاج وبضائعهم أو أمتعتهم ودوابهم ويوجد به اصطبل للدواب وفى أعلاه غرف ينزل فيها الوافدون وتطل هذه المساكن على ساحة يطلق عليها الحوش يتوسط الخان . وكان يلحق بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد صغير .

(١) المطالب يقصد بها أبحاث

عشر والذى شرح القاموس وأطلق على شرحه تاج القاموس فى عشرة مجلدات . ثم الأمير أزبك بك الذى أطلق اسمه على منطقة الأزبكية ، ثم الأمير حسن بك الجداوى ، كما ترجم ترجمة مقتضبة نوعا ما للأمير محمد بك الألفى كبير بيت الألفية فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . كما ترجم المؤلف لبعض المجاذيب من الدراويش مثل الشيخ على البكرى (١) والشيخة أمونة . وكان الاثنان وأضرابهما يمثلون قطاعا هاما فى المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر هو قطاع الدراويش وقد اتخذ معظمهم الدجل والشعوذة وسيلة لابتزاز الأموال من البسطاء رجالا ونساء باسم الدين والدين منهم براء .

وتضمن هذا الجزء أيضا مائة وأربعة وستين بحثا تناول فيها موضوعات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال تحديد مواقع الأرض الحكر (٢) فى القاهرة وأنواعها وأوجه استغلالها ، وإنشاء دار الكتب المصرية ودار الضيافة وزواج السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، وخان الحمزاوى ، وأسوار القاهرة . والمبانى التى أزيلت عند بناء قصر عابدين . ومسكن بونابرت فى بيت الألفى بالأزبكية وسكنى محمد على فيه . ومدرسة الألسن ، ومعنى لفظة الخور لغة وعرفا عندما تعرض لخليج الخور بشارع قنطرة الدكة ، وكذلك سراى العتبة الخضراء . وأفرد فى نهاية الجزء الثانى بحثا مستفيضا عن أسرة البكرى التى ينتهى نسبها إلى أبى بكر أول الخلفاء الراشدين ويضفى المؤلف على هذه الأسرة الكثير من عبارات التبجيل . وانتهز الفرصة فترجم لأبى بكر الصديق ثم تكلم عن أصلاب أسرة البكرى وبعض فروعها وانتقل بعد ذلك إلى بيان الطرق الصوفية التابعة لمشيخة البكرى والتكايا التابعة لها . وشرح تحت عنوان «العوائد الخصوصية للبيت الصديقى» احتفالات المولد النبوى الشريف التى كانت تقام على مر العصور فى المشرق والمغرب العربيين ثم وصف هذه الاحتفالات فى مصر الحديثة وحرص على إبراز دور أسرة البكرى فى هذه الحفلات وما تنفقه فى سبيلها من أموالها . وقد جاء فهرس هذا الجزء متمشيا مع فهرس الجزء الثانى من حيث ترتيب ذكر المنشآت مع اختلاف يسير يتمثل فى تقديم أو تأخير بعضها فذكرها على النحو التالى : الشوارع — الحارات — العطف — الدروب — الجوامع — الزوايا — المدارس — الأضرحة — الأسبلة — المكاتب الأهلية — الكنائس — الحمامات — الوكائل — الدور — التراجم — المباحث والمطالب .

* * *

وأفرد على مبارك الجزء الرابع لمساجد القاهرة وابتدأ بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق أو مسجد عمرو ابن العاص على أساس أنه أول مسجد أسس فى مصر الإسلامية . فكتب فيه بحثا تناول فيه تاريخ إنشاء المسجد والتطور المعمارى الذى طرأ عليه من حيث التجديدات والزيادات التى أضيفت إليه . وزوايا التدريس بهذا

(١) كان هذا المجذوب يسكن سويقة البكرى فأطلق عليه اسم البكرى نسبة إلى السويقة وهو بذلك ، كما يقرر الجبرتى ، لايمت بصلة إلى أسرة البكرى . انظر الجبرتى ج ٢ ص ٢٤٨. وانظر قصته فى ج ٣ ص ص ٨٠ — ٨١ .

(٢) الحكر نوع من أنواع استغلال الأرض الموقوفة ويكون تأجيرها لغرض معين كالبناء والغراس فيها دون تقيد بمدة معينة فهو تمليك المحتكر حق البقاء والقرار فى الأرض المحتكرة له مادام ملتزما بدفع أجرة المثل . انظر : محمد سلام مدكور . موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية ١٩٦١ صص ٩٧ — ٩٩ وانظر أيضا دكتور عبد المنعم البدراوى : المدخل للعلوم القانونية ١٩٦٢ صص ٥٠٩ — ٥١١ .

المسجد . وانتقل المؤلف إلى ذكر مساجد القاهرة ملتزما بالترتيب الأبجدى لأسمائها ، فبدأ — بعد جامع عمرو — بالجامع الأزهر وأفاض فى عرض تاريخه عبر القرون ووصف الجامع من حيث حدوده وأبوابه ومقاصيره ومحاريبه وصحنه وأروقته ومناراته ومزاوله والقناديل التى تستخدم فى إنارته والصهاريج التى تستخدم كمستودعات للمياه العذبة والمدارس الملحقة بالجامع الأزهر ، وتطرق إلى شرح طرق التدريس فى الأزهر وأساليب الامتحانات وطلبة الازهر وعاداتهم ومآكلهم . وترجم للعلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر . والحق أن ما كتبه على مبارك عن الأزهر فى هذا الجزء يعتبر كتابا قائما بذاته . ومضى بعد ذلك يستعرض مساجد القاهرة واختص المساجد الكبرى بالإسهاب والتأريخ لها ، ونذكر منها مساجد ابن طولون والحاكم بأمر الله والسلطان حسن والرفاعي والمسجد الحسيني والسلطان الحنفى وأبى العلا وأولاد عنان والدمرداش . وجريا على عادته ترجم لهذه الشخصيات التى أطلقت أسماؤها على المساجد سواء كانت شخصيات دينية أو سياسية . واختص سيرة الحسين بن على بن أبى طالب بإسهاب فترجم للحسين وخروجه من مكة إلى العراق واستشهاده بها والأحاديث التى كانت تروى وما اتخذه الشيعة يوم قتله والعادات التى لايزال يتمسك بها الشيعة إلى الوقت الحاضر فى شهر المحرم . وترجم المؤلف أيضا لعدد من المتصوفة المدفونين بخانقاه سعيد السعداء . وانتهى فى هذا الجزء عند مسجد الرويعي .

* * *

ومضى على مبارك فى الجزء الخامس على نفس النهج يؤرخ لبقية مساجد القاهرة مبتدئا بحرف الزاى حتى آخر الأبجدية العربية . ومن أهم المساجد الكبرى التى أرخ لها فى هذا الجزء زين العابدين والسيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والإمام الشافعى وجامع المؤيد والظاهر والغورى والقاضى يحيى وجامع الكخيا — على مقربة من ميدان الأوبرا حاليا — وجامع الليث بن سعد بالقرب من مسجد الإمام الشافعى وجامع سنان باشا ببولاق على مقربة من شاطىء النيل وجامع قايتباى بقلعة الكبش والروضة والصحراء وجامع المؤيد وقوصون وجامع السادات الوفائية وجامع محمد على بالقلعة وقد أسهب فى وصف الجامع الأخير وجامع الامام الشافعى من قبل . وأورد المؤلف فى هذا الجزء بيانا عن الأوقاف الموقوفة على جامع كل من الغورى وسيدى عقبة وقايتباى وكوم الشيخ سلامة والكيخيا ومحمد أبى الذهب والإمام الشافعى وجامع سنان باشا وملحقاته من السبيل والمكتب والخان الكبير ببولاق . وذكر فى هذا الجزء أيضاً حادثين يعكسان صورتين من صور المجتمع فى مصر وقد وقع أولهما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وثانيهما فى نصفه الثانى . ويتلخص الحادث الأول فى أن واعظاً تركياً أخذ يعظ المصلين فى مسجد المؤيد خلال شهر رمضان ١١٢٣ (١٣ أكتوبر — ١١ نوفمبر ١٧١١) وحمل حملة عنيفة على ما يفعله فريق من المصريين بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل فوقها وحولها وجاهر بأنه لا يجوز بناء القباب فوق أضرحة الأولياء . وقد صادفت آراء هذا الواعظ التركى قبولا من جمهرة المستمعين وتحمسوا لها ، إلا أن نهاية الواعظ كانت مؤسفة إذ تكتل ضده بعض علماء الأزهر وقاضى القضاة وانضم إليهم الباشا العثمانى ومن ثم أصدر الأوامر إلى الجنود بنفى الواعظ وألقوا القبض على زعماء المصريين الذين ناصروه وأوسعوهم ضرباً وإهانة ونفوا بعضهم . أما الحادث الثانى فيتمثل فى أغرب عملية نصب ارتكبت فى القاهرة سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩—

١٧٦٠) وهى حادث العنزة الصغيرة التى احتفظ به الشيخ عبد اللطيف كبير خدم مسجد السيدة نفيسة ونسج حول العنزة قصصاً خيالية تدل على أنها تتمتع بكرامات شتى وتسامع الناس بهذه القصص حتى أصبحت العنزة حديث القاهرة فأقبل أهلها من كل فج لزيارة العنزة ويقدمون للشيخ النذور والهدايا . وأوغل الشيخ فى استغلال العنزة والجماهير معاً . فقال إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر . فحمل إليه الأهالى هذه الأصناف بكميات وفيرة وعملوا للعنزة قلائد وأطواق من الذهب الخالص . وسمع الأمير عبد الرحمن كتخدا — كبير الأمراء المماليك — بقصة العنزة فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه الحضور ومعه العنزة ليتبرك بها هو وأهل بيته . فركب الشيخ البغلة ووضع فى حجره العنزة وتحف به الطبول والأعلام والجم الغفير من الشعب حتى إذا وصل هذا الركب إلى دار الأمير أمر بادخال العنزة إلى الحريم ليتباركن بها . وكان قد أوصى بذبحها وطبخها وجيء بالغذاء وفيه لحم العنزة فأكل منها الأمير والشيخ وضيوف الأمير من الأمراء والأعيان . ولما فرغوا من الأكل وتناولوا القهوة طلب الشيخ العنزة ليعود بها إلى مقر عمله فأخبره الأمير بما حدث وأنبه تأنيباً عنيفاً وأمر بأن يوضع جلد العنزة على عمامته وأن يذهب بها كما جاء بموكبه وبين يديه الطبول والأعلام و عهد بشرذمة من الجنود بإيصاله وهو على هذه الصورة النكراء إلى المسجد النفيسى . وقد حفل هذا الجزء أيضاً بعدد من الشخصيات ترجم لها المؤلف نذكر منها سنان باشا الذى قاد حملة عسكرية عثمانية كبرى لإعادة فتح بلاد اليمن سنتى ١٥٦٨—١٥٦٩ وكان الزيدية قد تمكنوا من طرد العثمانيين من أغلب بقاع اليمن . ودارت حرب ضروس بين العثمانيين وبين الزيدية انتصر فيها سنان باشا وسمى هذا الفتح بالفتح الثانى لليمن . ومما ذكره على مبارك أمرين : أولهما أن سنان باشا ضم إلى الحملة العسكرية عدداً من الأمراء المماليك صناجق مصر فاستشهدوا جميعاً فى حرب اليمن ، وثانيهما أن سنان باشا عين مرتين والياً على مصر وكانت المرة الأولى قبل حملة اليمن من ٢٤ شعبان ٩٧٥ حتى ١٣ جمادى الآخرة ٩٧٦ (فبراير ١٥٦٧ — ديسمبر ١٥٦٨) وكانت المرة الثانية بعد انتهاء حملة اليمن من أول صفر ٩٧٩ حتى سنة ٩٨١ (يونيو ١٥٧١—١٥٧٤) وأنه تولى الصدارة العظمى أى رياسة الوزارة فى الآستانة أربع مرات . ومن الشخصيات التى ترجم لها على مبارك فى هذا الجزء أيضاً الملك الكامل وشجر الدر والظاهر بيبرس والسلطان المؤيد والأشرف قايتباى وقانصوه الغورى ومحمد أبو الذهب وعبد الرحمن كتخدا . ومن الشخصيات الدينية الإمام الشافعى والشيخ أحمد السبكى وعقبة بن عامر وذو النون المصرى وعمر بن الفارض والسيدة عائشة والسيدة سكينة والسيدة نفيسة كما كتب نبذة عن السيدة زينب .

* * *

وكان الجزء السادس هو ختام الأجزاء التى خصصها المؤلف لمدينة القاهرة . وقد استهل هذا الجزء بالكلام عن مدارس القاهرة فأرخ لست وتسعين مدرسة أنشئت منذ عصر الدولة الأيوبية وبعضها مدارس قائمة بذاتها وبعضها ملحق بالمساجد والبعض الثالث تحول عن غرضه الأصلى فأصبح يستخدم فى أغراض أخرى بعيدة عن التعليم مثل مدرسة الأشرف اينال وقد أنشأها بالصحراء حيث القرافة الكبرى . الملك الأشرف أبو النصر اينال العلائى الناصرى سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فقد أصبحت مخزناً للبارود يتبع وزارة

الحربية . ومعظم المدارس التى أرخ لها على مبارك يرجع إلى القرن الثامن الهجرى وإن كان بعضها يرجع إلى القرن السابع ثم القرنين التاسع والعاشر . ويلاحظ أن المؤلف لم يؤرخ فى هذا الجزء للمدارس الحديثة التى أنشئت فى القاهرة فى القرن التاسع عشر الميلادى مثل مدرسة الطب البشرى والطب البيطرى والمهندسخانة والزراعة والصيدلة والكيمياء والألسن والمعادن وغيرها . ومن المدارس انتقل إلى الزوايا وهى المساجد الصغيرة وقد أرخ لمائة وست وتسعين زاوية ، كان معظمها تقام فيه الشعائر وقليل منها معطل الشعائر وبعضها تنفق عليه وزارة الأوقاف أو « تحت نظر ديوان عموم الأوقاف » بمصطلح العصر وبعضها يعتمد على الوقف الأهلى ، إذ كان منشئو هذه الزوايا يشيدون فى بناية الزاوية بعض الحوانيت أو بعض المساكن ويوقف ايرادها للانفاق منه على الزاوية . وكان المؤلف حريصاً على ذكر التجديدات التى عملت للزوايا على مر العصور فكان يذكر اسم الشخصية التى أمرت بتجديد الزاوية وما أنفق عليها فى عمليات التجديد ثم يقرن ذلك بذكر الوقفية التى عملت للانفاق على الزاوية . وخير مثل يضرب فى هذا الصدد زاوية الطحاوى بالقرب من الإمام الشافعى ، فقد جاء فى الخطط فى هذا الجزء السادس أن حمزة باشا الوالى العثمانى أمر بتجديد الزاوية سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦–١٦٨٧) وأقام بها سبيلا وحوضاً وساقية ومزولة راسية ومزملة لشرب الماء . وفى حجة وقفيته المؤرخة فى ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧–١٦٨٨) أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام المدفون فيه الشيخ أحمد الطحاوى والسبيل والحوض والساقية جهات بر عديدة ينفق من إيرادها على أجرة الجمال التى تحمل الماء يومياً من النيل إلى السبيل وحدد مرتبات شهرية تدفع بانتظام إلى كل من شيخ القراء والقراء بالزاوية والمقام والبواب والفراش والخفير ومفرق الربعة وخدم كل من الزاوية والمقام والسبيل وكذلك ثمن زيت القناديل وأجرة الوقاد . وذكر المؤلف أنه توجد فى القاهرة ست عشرة زاوية تسمى كل واحدة زاوية الأربعين ، وأن فى معظم الزوايا أضرحة لبعض المشايخ تعمل لهم حضرة يوماً فى الأسبوع يتلى فيها القرآن الكريم والأوراد أو الأحزاب إذا كان الشيخ المدفون من المتصوفة ، كما يقام له مولد كل عام. ونستدل أيضاً من الدراسة الفاحصة للزوايا التى أرخ لها على مبارك أنه كان يقيم فى بعضها مجذوب من الدراويش وغالباً مايطلق على هذه الزاوية اسم هذا الشخص المجذوب ، ففى زاوية ابراهيم بن عصيفير بشارع بين السورين كان يقيم فيها هذا الابراهيم وتبدو منه تصرفات غريبة ، فإذا مرت عليه جنازة وأهلها يبكون هرع إلى النعش يمشى أمامه ويقول زلابية هريسة ويكررها . وقد مات هذا المجذوب سنة ٩٤٢ هـ إبان الحكم العثمانى ودفن بالزاوية . ومن الزوايا التى من هذا القبيل زاوية الشيخ عبد الرحمن المجذوب بالحسينية وكان رجلا مقعداً يجلس على الرمل صيفاً وشتاء وإذا جاع أوعطش قال : أطعموه أسقوه . وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت . وقد دفن فى هذه الزاوية التى أطلق عليها اسمه . ومن الزوايا عاد على مبارك إلى استكمال بحث مساجد القاهرة فأرخ لسبعة عشر مسجداً مع تراجم لأصحاب بعضها . وانتقل بعد ذلك إلى الخوانق فأرخ لثمانى عشرة خانقاه وكان من بينها خانقاه سعيدالسعداء وبيبرس وشيخو وقوصون ويونس وطناى النجمى وطيبرس . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط فتكلم عن سبعة ربط كان من بينها رباط البغدادية والخازن والفخرى والمشتهى والست كليلة . ومن الربط انتقل إلى التكايا فذكر عشرين تكية . نذكر منها تكية المغاورى وشيخو والخلوتية

ودرب قرمز والسنانية والسليمانية والمولوية والنقشبندية وتكية السيدة نفيسة وتكية السيدة رقية وتكية السادة الوفائية وتكية الهنود . ثم تكلم عن الأسبلة أو السبل فى القاهرة فذكر خمسة وخمسين سبيلا كان من بينها سبيل أم عباس ورضوان بك والسلطان محمود والسلطان مصطفى والشيخ صالح وحسن كتخدا عزبان وخليل أغا مستحفظان وطوسن باشا والست شوكار والست عائشة وعائشة هانم والعادلى والهيام واليازجى . واستطرد على مبارك إلى الحمامات العامة فى مدينة القاهرة فتكلم عن ستين حماماً منتشرة فى أنحاء القاهرة ، كان من بينها حمام الأفندى وحمام الباشا وحمام الخليفة وحمام بابا وحمام الخواجة وحمام البشرى وحمام الثلاث وحمام الدرب الأحمر وحمام الذهبى وحمام السيوفى والشعرانى والصنادقية والصليبة وطولون والعتبة الخضراء والعدوى والعطارين والغورية وقلاوون والكيخيا والقربية والقاضى والمقاصيص والمؤيد والناصرية . واختتم المؤلف الجزء السادس بالكلام عن الكنائس الموجودة فى القاهرة والتابعة لمختلف الطوائف المسيحية فذكر ست وعشرين كنيسة منها كنيسة الأرمن الكاثوليك وكنيسة الأروام وكنيسة خميس العهد وكنيسة الشوام والسبع بنات والسريانى والموارنة ، وذكر كنيساً واحداً لليهود . ثم عاد وتكلم عن كنائس الأقباط الأرثوذكس المقامة فى القاهرة حتى سنة ١٨٨١ وقد بدأ بالكنيسة البطريركية الكاتدرائية الكبرى وقال إنها معروفة أيضاً باسم الكنيسة المرقسية لأنها مرسومة باسم القديس مرقس الحوارى المبشر بالإنجيل فى الديار المصرية . كما أنها تعرف بالبطريكخانة وبالقلاية أيضاً . وأن معنى القلاية مسكن الرئيس الروحى . ثم عرض بالتفصيل لتاريخ إنشائها وكيف أن أخت السلطان العثمانى كانت قد مرت بمصر فى طريقها من الآستانة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وسارع المعلم إبراهيم الجوهرى رئيس كتبة القطر المصرى بتقديم خدمات جليلة لها أثناء إقامتها فى الديار المصرية فى الذهاب والعودة ، كما قدم لها هدايا قيمة تناسب مقامها . فأرادت مكافأته واستفسرت منه عما يريده فالتمس منها المساعدة فى استصدار مرسوم من السلطان بالإذن فى بناء كنيسة بالأزبكية ورفع الجزية عن الرهبان وغير ذلك من مسائل طائفية ، وقد استجابت الآستانة لهذه الطلبات وانتهى العمل فى تشييدها سنة ١٨٠٠ وأخذ على مبارك يصف الكنيسة والهياكل المقامة بها والقباب والنقوش والأعمدة الرخامية وما إلى ذلك . وأرخ بعد ذلك لعدد آخر من كنائس الأقباط الأرثوذكس فى القاهرة ومنها الكنيسة الأولى والكنيسة الثانية بحارة زويلة وكنيسة حارة الروم السفلى وكنيسة الشهيد جرجيوس وكنيسة حارة السقائين . وترجم لبعض مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر مثل دميان بك جاد شيحه وميخائيل جاد تادرس عريان وابنه عريان بك تادرس . ثم أردف ذلك ببحث عن تاريخ بطاركة الأقباط الأرثوذكس وقد بدأ فيه حيث انتهى المقريزى الذى كان قد وقف فى سرده لتاريخ البطاركة عند البطريرك اثناسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل وكان هذا البطريرك هو السادس والسبعون فى عدد البطاركة الذين تولوا الكرسى البطريركى الإسكندرى فأتم على مبارك تاريخ البطاركة مبتدئاً بالبطريرك السابع والسبعين وهو غبرائيل الثالث ومضى يستعرض تاريخ كل منهم الواحد بعد الآخر حتى وصل إلى البطريرك الثانى عشر بعد المائة وهو كيرولس الخامس وقد صدر أمر الخديو اسماعيل بتعيينه بطريركاً فى سنة ١٨٧٥ .

* * *

وقد أفرد المؤلف الجزء السابع لمدينة الإسكندرية

فبدأ بموقع المدينة وما كان يوجد به إبان العصر الفرعونى وحكم الفرس لمصر وانتقل إلى حروب الإسكندر المقدونى وتأسيس مدينة الإسكندرية وتدرج إلى تاريخ مصر أيام البطالمة والرومان وكيف اتخذ هؤلاء وأولئك الإسكندرية عاصمة للبلاد وخص مكتبة الإسكندرية ببحث خاص أوضح فيه مكانتها العلمية فى العالم وقتذاك وانتقل إلى الفتح العربى لمصر وبناء مدينة الفسطاط وانساق إلى نشأة الإسلام وأفاض فى شرح السيرة النبوية العطرة ثم خلافتى أبى بكر وعمر والفتوحات التى تمت وقتذاك فى آسيا وأفريقيا وعاد إلى فتح مصر وتكلم عن موقف المقوقس من العرب أثناء العمليات الحربية وحصار عمرو بن العاص لمدينة الإسكندرية، وناقش موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وفنّد الفرية القائلة بأن العرب هم الذين أعملوا فيها النار، ثم تكلم عن عدد الولاة والحكام والملوك والخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح العربى ٦٤١ حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ واستطرد إلى الأزمات التموينية وموجات الغلاء والأوبئة التى تعرضت لها مصر خلال هذه الأحقاب، واستعرض تاريخ بعض الولاة العثمانيين على مصر، ثم شرح كيف فقدت الإسكندرية زعامتها السياسية والعلمية وكيف انتقلت هذه الزعامة إلى الفسطاط فالقاهرة ، وأبرز دور صلاح الدين الأيوبى فى إنهاء الحكم الفاطمى فى مصر والصراع الحربى الذى اشتد أواره بينه وبين الصليبيين وتدرج إلى تاريخ الحروب الصليبية — ويسميها حرب الصليب — وخص بالذكر موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ ويسميها « واقعة ستلويز المشهورة » وهو يقصد بلفظة ستلويز سانت لويس Saint Louis أى لويس المقدس وهو لويس التاسع ملك فرنسا وعاد فأطلق عليها « غارة سندلويز » وهو يقصد بهذه العبارة حملة لويس التاسع . وتكلم طويلا عن هزيمته فى فارسكور ووقوعه فى الأسر واقتياده إلى المنصورة وافتدائه بالمال الوفير . وخلص من هذا الاستطراد إلى القول بأن « غارة سندلويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية لم تضر بالقطر ، وإنما أضرت باسكندرية لأن الفرنساوية والبندقين أضرموا فيها النار وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها وذلك سنة ١٢٥٠ » ثم تعرض لتاريخ الدولة الأيوبية ودولتى المماليك والحكم العثمانى وشرح النظم السياسية والإدارية التى وضعها العثمانيون لحكم مصر وكيف تطورت هذه الأنظمة تطوراً أدى إلى استئثار الأمراء المماليك بالنفوذ ، وتكلم عن حركة على بك الكبير — ويسميه على بك أباظة — وفشل هذه الحركة واستمر يؤرخ لمصر إبان حكم أبى الذهب ومراد بك وإبراهيم بك حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر. وخلص من هذا التاريخ إلى حكم عام ينسحب على الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر إذ قال « ومن النظر فيما تقدم من أخبار المدد السابقة والتقلبات التى مرت على تلك الديار علم أن مدينة الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر بعد أن كانت متوجة بتاج المهابة والإجلال رافلة فى حلل السعادة والإقبال ، وكان وادى النيل مزيناً من كل جانب بالمدن الفخيمة ذات المعابد والهياكل المشيدة العظيمة . تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الثروة والابتهاج . نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدمات ... »

وانتقل من هذا التعميم إلى التخصيص وأخذ يتكلم عن تاريخ الإسكندرية منذ إنشائها على عهد الإسكندر وأبرز الرأى الراجح بين المؤرخين وهو وإن كان الاسكندر هو صاحب الفكرة فى انشاء المدينة لأن عصره لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المبانى فإن الذى قام ببنائها هو بطليموس سوتير «فالاسكندر

له الفكرة الأصلية وإلى بطليموس ينسب تجسيمها » وناقش الآراء المتضاربة حول مكان قبر الإسكندر ثم شرح التطور الذى طرأ على مساحة المدينة وعدد سكانها وحياتهم الاجتماعية فى العصرين البطلمى والرومانى وتكلم عن مسلتى كليوباتره من حيث تاريخهما وأوصافهما والنقوش التى عليهما وانتقل إلى عمود السوارى فتناوله بالشرح وتكلم عن التمثال الذى كان موجودا فوق هذا العمود ، وانتقل بعد ذلك الى الكلام عن أسوار المدينة وشارع كانوب وجزيرة فاروس والمنار القديم والرصيف الحجرى المسمى هيبتا ستاد الذى كان يصل جزيرة فاروس بشاطىء البحر ، ووصف الميناء الشرقى وسعته والقصور التى كانت تزخر بها المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى ، وفنّد الرأى القائل بأن نبى الله دانيال مدفون بالإسكندرية فى أسفل كوم الدكة تأسيسا على أنه مات قبل بناء الاسكندرية بثلاثة قرون وأنه قضى حياته فى بابل ، كما استند الى رأى محمود باشا الفلكى . وتكلم عن جامع أثرى هو جامع الألف عمود أو جامع السبعين ويطلق عليه أيضا الجامع الأخضر وحدد موقعه وذكر سبب تسميته بالألف عمود وجامع السبعين ، وقرر أن هذا المسجد كان موجودا إلى زمن الحملة الفرنسية . وانتقل إلى تاريخ المدينة بعد الفتح العربى وما فعله المسلمون بها ومساحة المدينة على عهد الحملة الفرنسية وعدد الأبواب التى كانت بسورها القديم ووصف ضواحى المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى واعتمد فى ذلك على ماذكره سترابون وديودور وغيرهما . وانتقل الى الكلام عن خليج اسكندرية ومديرية مريوط ثم مدينة مريوط ثم بحيرة مريوط وعين حدود تلك المديرية والحاصلات الزراعية التى تجود فى أرضها وأوجه النشاط العمرانى

الذى كانت تزخر به هذه المديرية . كما دخل فى تفاصيل عن مدينة مريوط وبحيرة مريوط وتكلم عن الإجراء الحربى الذى أقدم عليه الإنجليز مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر وهو قطع سد أبى قير ، وكانت المرة الأولى فى سنة ١٨٠١ إبان الحرب التى خاضها الإنجليز لإجلاء الفرنسيين عن مصر ومحاصرتهم الجنرال مينو فى الإسكندرية ، والمرة الثانية فى سنة ١٨٠٧ عند قدوم الحملة البريطانية على مصر واحتلالها الإسكندرية وتطرق إلى وضع تاريخ موجز لحملة سنة ١٨٠٧ . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن الإسكندرية فى القرن التاسع عشر وذكر عدد سكانها فقرر أنه بلغ فى سنة ١٨٣٠ مايقرب من ١٣٠ ألف نفس ثم قفز هذا الرقم فى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥) إلى ٢٧٠ ألف نسمة، وأشار إلى القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالإذن للسفن الأجنبية فى دخول الميناء الغربى وكان محظورا من قبل على هذه السفن دخوله ، وكان الميناء الشرقى هو المعد لرسو السفن الأجنبية على الرغم من الخطورة التى كانت تتعرض لها السفن فى الميناء الشرقى ، وشرح مانجم عن هذا القرار من ازدياد حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى حفر ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ والأسباب التى دعت إلى حفرها ووصف مسار الترعة والأهوسة التى أقيمت عليها ونفقات حفرها والمنافع التى عادت على المدينة من إنشائها وإحياء موات الأراضى فى إقليم البحيرة . وذكر المبانى التى ألحقت بالترعة وكان من بينها مسجدان أحدهما عند مخرج الترعة فى العطف وثانيهما عند مصبها فى البحر المتوسط وهو جامع التاريخ . ومنها مخازن الغلال الأميرية وحفر مجرى تحت الأرض

لتوصيل الماء العذب الى جهة الترسانة والجمرك ، وقد فتح فى عدة مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالى الماء فى أى وقت شاءوا . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى تعميق ميناء الإسكندرية ومد أرصفة ترسو السفن الكبيرة بجوارها للتخفيف من نفقات الشحن والتفريغ وإنشاء ترسانة بحرية وجهود المهندس الفرنسى سيريزى Cérisy فى بناء السفن ولم يفت على مبارك أن يشيد بكفاءة أحد الإسكندريين فى صناعة بناء السفن وهو الحاج عمر فإنه « كان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية وإقدام على مثل هذه الأعمال مع الإصابة » وتكلم عن المدرسة البحرية التى أنشأتها الحكومة لإعداد الشبان المصريين للعمل بحارة على السفن المصرية وإنشاء الفنار وقد وصف موقعه وارتفاعه وقوة إضاءته ، والحوض الجاف لإصلاح السفن وشرح طريقة استخدامه ، وتعرض بالشرح لقوة الأسطول الحربى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وأورد عدة بيانات تفصيلية عن عدد السفن وأسمائها وعدد مدافعها وقوتها وعدد بحارتها وأنهم بلغوا ١٥,٦٤٣ وأن عدد عمال الترسانة البحرية ٤,٠٧٦ عاملا ، وعاد فذكر بيانا تفصيليا آخر عن القوات المسلحة المصرية — برية وبحرية — وأسماء الفرق والأسلحة التى تنتمى إليها وأنواعها وعددها والأماكن المرابطة فيها وما ينفق عليها . ثم تكلم عن واقعة تسليم أحمد فوزى باشا قائد الاسطول العثمانى ٢٥ قطعة بحرية من الأسطول لمحمد على عقب هزيمة الجيش العثمانى فى موقعة نصيبين فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ على يد الجيش المصرى ثم وفاة السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ، وأورد على مبارك بيانا عن قوة هذه الوحدات وعدد رجالها . وخرج المؤلف من هذا السرد إلى أن الإسكندرية قد غدت مدينة ذات بأس وقوة. وقارن بين حالتها وقتذاك وحالتها عندما داهمتها حملة الجنرال بونابرت سنة ١٧٩٨ ووصف دخول الفرنسيين الإسكندرية. وتكلم عن حصيلة الرسوم الجمركية وقيمة البضائع الواردة والصادرة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٤٢ . وأفرد بحثا عن الإسكندرية إبان حكم ابراهيم باشا وبحثا آخر عنها إبان حكم عباس الأول . ويلاحظ أن على مبارك قد أشاد بحكم عباس الأول ولم يبخسه حقه كما فعل معظم الذين أرخوا لهذا الوالى . وكان على مبارك موضع تقدير عميق من عباس الذى استفاد به فى تنظيم المدارس وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها . تكلم على مبارك عن الأنظمة العسكرية التى أدخلها عباس على الجيش المصرى واهتمامه بإقامة الاستحكامات العسكرية فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر الشمالية على ضوء ما كان يقترحه جاليس بك Gallice مدير الاستحكامات . وقال على مبارك إن عباسا قد أنشأ ثلاثة حصون جديدة فى كل من العجمى وأبى قير ومقابر اليهود التى أنشأ فيها أيضا مستودعا للمواد الحربية كان يسع تسعة آلاف قنطار بارود . وأنه بنى عدة مستشفيات عسكرية كان من بينها مستشفى فى أبى قير . وبنى ورشة للطوبجية فى وسط المدينة على مقربة من كوم الناضورة تشمل أقساما للنجارة والحدادة والبرادة والسبك . وذكر على مبارك أيضا أن عباسا أمر بإجراء عملية مسح للشواطىء المصرية ابتداء من الإسكندرية شرقا حتى العريش. وغربا حتى مرسى مطروح التى كانت تعتبر الحد الفاصل بين حدود مصر الغربية وبين طرابلس الغرب . وظل الأمر على ذلك حتى حكم الخديو اسماعيل فاتضح بما لا يدع مجالا للشك أن السلوم هى آخر بلدة مصرية تقع على حدود مصر الغربية وسجل ذلك التحديد فى خرائط عسكرية .

وقد أمر عباس بأن تمتد عمليات المسح لتشمل بحيرة مريوط إلى حدود الأراضى الزراعية فى إقليم البحيرة وإلى حدود الأراضى المرتفعة جهة وادى النطرون . وأشار إلى اهتمام عباس اهتماما زائدا بالمحافظة على صهاريج المياه فى الإسكندرية لمواجهة الطوارىء ، وكانت أحداث قطع الإنجليز لسد أبي قير لاتزال ماثلة فى الأذهان. ويلاحظ أن هذا الاهتمام بمسائل الطوارىء والتعزيزات العسكرية كان مرده إلى الأزمة السياسية التى قامت بين القاهرة والآستانة حول تطبيق قانون التنظيمات . وقد ظل هذا الاهتمام قائما لأنه بعد أن سويت أزمة التنظيمات اشتركت القوات المصرية فى حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا. وأشار المؤلف فى هذا البحث إلى الطريق العسكرى الذى أنشئ من قلعة القبارى إلى باب العرب ليجتازه الجنود فى تحركاتهم ، وذكر المحطات الواقعة على الطريق من الإسكندرية إلى السلوم وانتقل الى مشروع استخراج الإسفنج من الشواطىء المصرية فى منطقة السلوم بمعرفة أحد الملتزمين لمدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤—١٨٧٥ م) وفق شروط معينة . وتعرض المؤلف لتخطيط المنطقة الفضاء الواقعة بين مينا البصل وميناء الشراقوة حيث شيدت مستودعات ضخمة للبضائع الواردة والصادرة ، وأصبحت هذه المنطقة تعج بنشاط اقتصادى واسع لقربها من الميناء الغربى وشاطىء ترعة المحمودية حيث كانت السفن النيلية تفرغ شحناتها وفى نفس الوقت كانت السفن البحرية تشحن البضائع المصدرة إلى الخارج . كما أشار المؤلف إلى اهتمام عباس بتعمير جهات الحضرة والمندرة والسيوف والرمل ، وخلص من هذه المشروعات المتعددة إلى المشروع الرئيسى وهو مد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة على عهد عباس واستعرض المؤلف المحاولات التى بذلتها بريطانيا على عهد محمد على لإنشاء خط حديدى من القاهرة عبر الصحراء إلى السويس وكيف وافق محمد على أول الأمر على المشروع واستورد مقادير من القضبان والآلات ، ثم عاد فصرف النظر عن المشروع واستخدم القضبان فى مد خط من طرا الى شاطىء النيل لنقل الأحجار اللازمة لمشروع القناطر الخيرية ، وتكلم عن تنظيم الطريق البرى من السويس إلى القاهرة فالإسكندرية على عهد محمد على وكيف اتجه هذا الوالى لتمصير الأجهزة الإدارية التى تشرف على تنظيم هذا الطريق واختتم المؤلف البحث بشرح بعض الملابسات التى أحاطت بإنشاء الخط الحديدى من الإسكندرية فى اتجاه القاهرة . وأعقب على مبارك هذا البحث ببحث آخر عن الاسكندرية إبان حكم الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدد سكانها حين تولى هذا الخديو الحكم فى يناير ١٨٦٣ كان قد بلغ ١٧٠ ألف نفس ثم قفز فى سنة ١٨٧٢ الى ٢١٢،٠٤٣ نسمة ومن بين هذا العدد ٤٧،٣١٦ أجنبيا . وأورد احصائية عن استهلاك اللحوم فى الإسكندرية وأوضح أن هذا الاستهلاك قد زاد زيادة كبيرة للغاية ، وأرجع هذه الزيادة إلى زيادة حركة النشاط التجارى فى المدينة وارتفاع مستوى المعيشة بها ، ودلل على ذلك أيضا باحصائية طريفة عن وسائل النقل فى الإسكندرية ومنها يتضح أن عدد عربات الركوب وخلافها قد بلغ ١٤٣١ من عربات حنطور ومزدوجة ومفردة وعربات ركوب بالأجرة هذا عدا عربات أفراد أسرة محمد على وتوابعهم وعربات الأجانب . ثم تكلم عن الشوارع التى فتحت فى ذلك العهد وما تم تبليطه منها حتى سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) وإقامة تمثال محمد على فى ميدان المنشية وقد بلغت تكاليف إقامته مليونين من الفرنكات .

وانتقل الى الكلام عن التقسيم الإدارى للمدينة ، فقرر أن بها ثمانية أقسام للشرطة – أو الضبطية بمصطلح ذلك العصر – وأن فى كل قسمين معاونا واحدا . وتكلم طويلا عن ضاحية الرمل وجهود الحكومة لتعميرها وتنشيط حركة الاصطياف فى ربوعها وتيسير المواصلات بينها وبين المدينة . وانتقل إلى الكلام عن مساكن المدينة ودور قناصل الدول فى الاسكندرية التى اتخذوها مصيفا لهم ينتقلون إليها من القاهرة فى السكة الحديدية على نفقة الحكومة المصرية وانتقال الحكومة إلى الإسكندرية ثلاثة أشهر فى الصيف . وقرر أن محمد على هو الذى استن هذا التقليد ، وأوضح المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على المدينة من انتقال الحكومة إليها صيفا . وتكلم عن مساجد الإسكندرية فقال إن بها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ومن الزوايا ٩٧ وتضم بعض الزوايا أضرحة لبعض الأولياء بينما البعض الآخر خال من الأضرحة ونذكر على سبيل المثال من المساجد التى أرخ لها فى إسهاب أو إيجاز : مسجد أبى العباس المرسى وياقوت العرشى وتاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى ونصر الدين والبوصيرى والشيخ تمراز والحجارى والمغاورى وعبد الرزاق الوفائى والحلوجى والصورى وسيدى جابر الأنصارى ونبى الله دانيال والطرطوشى وسيدى مجاهد وبجميع هذه المساجد أضرحة من تنسب إليهم . ومن المساجد الخالية من الأضرحة مسجد طاهر بك ومسجد سلطان ومسجد محرم بك ومسجد كرموز ومسجد الشيخ بالميدان ومسجد عبد اللطيف وهو معد لصلاة الجنازة . وانتقل الى الكلام بعد ذلك عن كنائس المدينة فقرر أن عددها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة للنصارى وثلاث لليهود . وذكر أسماءها وأماكنها وتكلم أيضا عن فنادق الإسكندرية ومستشفياتها وحماماتها العامة ومقاهيها ومسارحها وأسواقها والجمعيات الخيرية الأجنبية وشركات التأمين والبورصة وبيوت الرهن والشركات التجارية بها وطوائف الصناع ورجال الحرف والمدارس المصرية والأجنبية . وأفرد بحثا ضافيا عن ميناء الإسكندرية فتكلم عن المنشآت الحديثة التى تمت به إبان حكم اسماعيل من إنشاء حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن يحل محل الحوض الذى كان محمد على قد أنشأه من الحجر والذى أصبح لايساير تطور صناعة بناء السفن، وذكر أنه صنع فى فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨–١٨٦٩) . وحدد ارتفاعه وعمقه وعرضه ووزنه وقوة آلاته وقرر أن تكاليفه بلغت ١٢٦,٣٦ جنيها مصريا وقد أطلق على مبارك على الحوض لفظة دوك وهى مأخوذة من الكلمة التى تستعمل فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية dock وشرح أهمية وجود أحواض لإصلاح السفن فى الموانى الكبرى ، والمقصود بكلمة حوض . ثم تكلم عن حاجز الأمواج الذى أقامته الحكومة من جزيرة رأس التين إلى العجمى ليقى الميناء طغيان الأمواج ويجعل السفن الراسية به بمنجاة من العواصف وجعل فيه البوغاز لمرور السفن فيه ، وبناء أرصفة للشحن والتفريغ ، ومد خطوط حديدية إلى أرصفة الميناء لتسهيل تلك العمليات ثم أورد سبع إحصائيات عن النشاط التجارى البحرى للإسكندرية ومقارنته بنشاط الموانى المصرية سواء فى البحر المتوسط أو فى البحر الأحمر . ومن هذه الاحصائيات إحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء الإسكندرية ابتداء من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٢ وإحصائية ثانية عن عدد الوافدين من الأجانب على ميناء الإسكندرية خلال هذه الفترة وقيمة البضائع الصادرة والواردة إليه فى سنة ١٨٧٠ وإحصائية مقارنة عن قيمة

الصادرات والواردات فى موانى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش والقصير وسواكن ومصوع ، وإحصائية أخرى توضح حجم التبادل التجارى بين مصر وبين كل من انجلترا وفرنسا وبلاد اليونان وأمريكا والسويد والمغرب والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والشام وتركية أوربا وتركية آسيا ، وإحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء السويس فى الفترة من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٧٢ وكيف تضاعف عددها حوالى أربع مرات ، ثم احصائية أخرى عن عدد السفن التى دخلت موانى سواكن والقصير ومصوع وحمولة هذه السفن . ومن ميناء الإسكندرية انتقل المؤلف إلى الكلام عن مصلحة وابورات البوستة الخديوية والنجاح الذى حققته واتساع نطاق أعمالها وتملكها ست وعشرين باخرة تجوب البحار ناقلة المسافرين والبضائع والبريد وما تستهلكه كل سفينة فى السنة من الفحم مقدراً بالأطنان . وأورد إحصائية بأسماء خمس وعشرين باخرة من سفنها وقوة كل منها ، ثم أسماء ١١ من سفن البحرية المصرية وقوة كل منها ومجموع حمولتها ونذكر على سبيل المثال أسماء ثلاث سفن هى « المحروسة » وقوتها ٨٠٠ حصان ومخصصة لركوب الخديو ، و« مصر » وقوتها ٦٠٠ حصان . ومخصصة لركوب المعية الخديوية ، و« الغربية » وقوتها ٥٠٠ حصان . ومخصصة لركوب الفاميليا الخديوية — أى العائلة الخديوية — ثم استعرض أسماء شركات الملاحة البحرية الأجنبية ونشاطها ومواعيد سفر سفنها . وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الفوائد التى عادت على الإسكندرية من ربطها بالشبكة الحديدية وبأسلاك البرق وتكلم عن الشبكة الحديدية فى مصر وطول الخطوط الحديدية مقدرة بالأميال ، وانتقل إلى الكلام عن سكك حديد السودان وأقسامها ومحطاتها ، وشرح على مبارك الجهود التى بذلها حين تولى إدارة مصلحة السكك الحديدية فى إنشاء المحطات والنهوض بمستوى الخدمة فى هذه المصلحة ، ثم تكلم عن عدد الخطوط الحديدية ومحطات الوجه البحرى والوجه القبلى والوقت الذى يستغرقه المسافر من محطة إلى أخرى . واختتم هذا البحث بالكلام عن طول الأسلاك البرقية الممتدة فى مصر وفى السودان حتى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤—١٨٧٥) مقدرة بالأميال الإنجليزية . وقرر حقيقة هامة هى أن مصر فاقت فى استخدام البرق كثيرا من الدول الأوربية مثل السويد وبلجيكا والدانمرك وهولندا والبرتغال . وأورد إحصائية عن جملة أسلاك البرق فى كل من مصر والسودان عدا خطوط البرق الخاصة بشركة قناة السويس وشركة مالطة .

★ ★ ★

وابتداء من الجزء الثامن حتى الجزء السابع عشر استعرض على مبارك البلاد المصرية فيما خلا القاهرة والإسكندرية . وقد التزم بالترتيب الأبجدى فى ذكر أسماء البلاد . ومن البحوث الهامة التى وردت فى الجزء الثامن البحث الذى وضعه عن انتشار ظاهرة اجتماعية فى مصر هى شرب القهوة وما أثاره رجال الدين من ضجة حول تحريمها أو إباحة شربها . وكان قد شاع استخدامها بادىء ذى بدىء فى أوساط المتصوفة لتساعدهم على السهر فى حلقات الذكر . وقد جلب البن الى مصر متصوفو اليمن . واستطرد المؤلف إلى الكلام عن نبات البن فى اليمن والحبشة وأشار إلى بلدة الجبرت فى الحبشة وهى الوطن الأصلى لأسرة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور . فترجم لوالده الشيخ حسن الجبرتى . وتكلم عن القرار الذى أصدره الجنرال بونابرت بتحريم تعاطى الحشيش

وشرب البوزة ومعاقبة من يخالف هذا القرار من المصريين بالحبس ثلاثة أشهر، كما نص فى القرار على حرق طرود الحشيش التى ترد إلى الجمارك المصرية . ولما جاء ذكر قرية انبابة – فى شمال الجيزة على الشاطىء الغربى للنيل تجاه بولاق – شرح الموقعة المشهورة التى جرت بين مراد بك والجنرال بونابرت وهى التى يسميها الفرنسيون معركة الأهرام (٢١ يوليو ١٧٩٨) تمجيدا لانتصارهم فيها ، وقد أفاض على مبارك فى شرح الأيام العصيبة التى شهدتها القاهرة والتى سبقت ولحقت هذه المعركة وقد استقى مادتها العلمية من الجبرتى . وتعرض لوصف مقياس النيل الذى كان موجودا فى أسوان وشرح معنى لفظتى اغريقى واللتى – اللاتينى – ووصف خشب الدوم ومزاياه . وشرح فى هذا الجزء أيضا شرحا وافيا منطقة آثار أبى سمبل ويكتبها (ابسنبول) ومعابد إدفو وأرمنت والأشمونين. ومن المدن الهامة التى أرخ لها فى هذا الجزء أبو تيج واخميم وأبو كبير وأرمنت والإسماعيلية وإسنا وأسوان وأشمون والأشمونين. ومن الشخصيات التى ظهرت لها تراجم فى هذا الجزء ذو النون المصرى وابن جبير وابن زولاق وابن سيناء وعبد الرحمن الناصر والشيخ محمد الخرشى وعلى الأجهورى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد الإنبابى والشيخ محمد احمد فرغل والشيخ عبد الرحمن البوتيجى والشيخ محمد السميعى وهؤلاء الثلاثة من أعلام أبى تيج . ومن الشخصيات الأجنبية سترابون اليونانى الجغرافى وفيزاغورس العالم اليونانى وبلوتارك العالم الفيلسوف . وقد تضمن هذا الجزء البلاد التى تبدأ اسماؤها بحرف ا .

★ ★ ★

وفى الجزء التاسع بحث ضاف عن قافلة الحج المصرية ونظام خروجها من القاهرة وإقامتها خمسة أيام فى بركة الحج – وهى قرية فى شمال شرق القاهرة تقع فى جنوبى الخانكة وشرقى المرج – ثم استئناف سيرها إلى الحجاز . ويستعرض المؤلف المحطات التى تقف عندها القافلة حتى تصل إلى الأراضى المقدسة بالحجاز ، والاجراءات التى تتبع فى إقامتها وفى ظعنها وتدابير الأمن للمحافظة على الحجاج والأموال ، ويشرح كيفية عمل الكسوة الشريفة التى تأخذها البعثة الرسمية معها وتنظيم موكب المحمل وما إلى ذلك من تفصيلات وافية ودقيقة . وقد جاء كل هذا الاستطراد عندما تكلم عن بركة الحج التى أشرنا إلى موقعها . ولما تكلم عن بنى مزار وصف مصنع السكر فى هذه المدينة وإنتاجه من السكر الأبيض والسكر الأحمر ومدة تشغيل هذا المصنع ليلا ونهارا أربعة أشهر ابتداء من مدة عصر عيدان قصب السكر ، وتكلم أيضا عن المبانى الملحقة بهذا المصنع مثل المستودعات المخصصة لحفظ السكر ومساكن المهندسين الأجانب ووابور النور الذى يمد المصنع بالإنارة وبالقوى المحركة لإدارة آلاته . والخطوط الحديدية الممتدة إلى داخل المصنع وإلى أراضى تفتيش زراعة القصب فى بنى مزار. كما يحوى هذا الجزء وصفا للأعياد التى كان يحتفل بها المصريون فى العصور القديمة وقد نقلها عن هيرودوت . وشرح المؤلف بعض المصطلحات التى ورد ذكرها فى المصادر والمراجع التى تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : البقط ، البازدار ، مفردى ، مفارده ، متفردون ، مفردون ، الديوان المفرد ، الزمامى ، الزماميون ، ديوان الازمة ، صاحب ديوان الزمام ، زمام دار ، خوندة ، خوندات خاتون ، خواتين . كما شرح بعض مصطلحات فنية فى دراسة فلاحة الارض نذكر منها : المرجع ، الدهيبة ، البراش ، الرداد ، التلويق . ومن المدن التى

أرخ لها فى هذا الجزء ، الباجور ، باقور ، بانوب ، ببا والبتانون ، ويكتبها البتنون . البدارى ، بدرشين ، بردين ، بسيون ، بلبيس ، بلقاس ، بلينا ، بنها ، بنى سويف ، بنى عدى ، بنى مزار ، بهتيم ، بهجورة .
وفى هذا الجزء ترجم على مبارك لنفسه ترجمة مستفيضة تناولت حياته الخاصة والعامة . كما ترجم لتقى الدين احمد بن على المقريزى واستمد مادته العلمية عنه من كتاب أبى المحاسن التميمى المسمى بالمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وترجم أيضا للشيخ ابراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد الدردير من علماء الأزهر وإبراهيم المتبولى وعلى الخواص من كبار المتصوفة . . ومن الشخصيات الأجنبية التى ترجم لها : شامبليون ويكتب على مبارك اسمه بالطريقة التركية جانبوليون . وهو عالم الآثار المصرية القديمة الفرنسى الذى عكف على فك رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن التاسع عشر . كما ترجم لبعض الفلاسفة والعلماء اليونانيين وغيرهم من القرن الثالث والخامس والسادس للميلاد نذكر منهم اجاتمر . اتيين البيزنطى . اولنبيودور . بروكوب . وترجم أيضا لأحد العلماء الفرنسيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والنباتية وهو ريمور . ولم يغط هذا الجزء جميع البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الباء فوقف عند بهوت وهى قرية تتبع مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية حاليا وترجم لثلاثة من علمائها عاشوا إبان الحكم العثمانى .

* * *

وحفل الجزء العاشر بعدة أبحاث تتصل ببعض البلاد المصرية ذات الشهرة التاريخية . مثل بوصير والبوطة وأبو قير — ويكتبها بوقير — وتروجه وتنيس وحلوان . فلما جاء ذكر بوصير تكلم عن مقتل مروان ابن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية وحاول تحديد المكان الذى لقى فيه هذا الخليفة مصرعه وهل هو بوصير الجيزة أو بوصير الفيوم ؟ واستعرض كتابات المقريزى وابن حوقل وأبى المحاسن وأبى الفداء وابن خلكان فى هذا الصدد . ولما تعرض للبوطة وهى قرية فى محافظة البحيرة كانت مسكنا لشيخ عرب البحيرة حسن بن برعى وأخيه شكر تعرض لقتلهما على يد المماليك الشراكسة الذين قطعوا رأسيهما وشربوا من دمهما وجزل بعضهم من لحمهما بالسيف وأفاض فى وصف نهايتهما جزاء خيانتهما للسلطان طومانباى . وعند أبى قير تكلم عن الخليج الناصرى(١) الذى حفره الناصر محمد ابن قلاوون وكانت هذه الترعة تخرج من الرحمانية وتأخذ مسار خليج الإسكندرية القديم واستطرد إلى العلاقات بين مصر والصليبيين فى صيدا بالشام ، وبين مصر وجزيرة قبرص . وانتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث فتكلم عن موقعتى أبى قير البحرية (اول اغسطس ١٧٩٨) وأبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ونشر بعض منشورات بونابرت للشعب المصرى وناقش موضوع قطع سد أبى قير كإجراء حربى لجأ اليه الإنجليز فى محاربة الفرنسيين . ولما تكلم عن تروجه — وهى مدينة قديمة فى جنوب غرب دمنهور — استعرض تاريخها منذ سنة ١١٧ هـ واستند إلى ما كتبه عنها المقريزى فى خططه والنويرى فى نهاية الأرب وكاترمير نقلا عن المقريزى فى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وتعرض للمفاوضات التى جرت فى هذه البلدة سنة ٣٥٨ هـ بين جوهر الصقلى قائد الجيش الفاطمى أثناء زحفه من الإسكندرية إلى الجيزة وبين وفد يرأسه أبو جعفر مسلم وأسفرت عن عقد الصلح . وانتقل إلى الكلام عن إقامة الظاهر بيبرس فيها ومقتل السلطان الأشرف خليل فيها سنة ٦٣٩ هـ . ولما وصل المؤلف

---

(١) كانت الترع تسمى فى ذلك الوقت خلجان .

فى ذكر المدن الى تنيس كتب تاريخا ضافيا عنها تناول الدور الذى لعبته فى العصور القديمة وفى العصور الإسلامية على ضوء ما كتبه المقريزى والمسعودى وأبو السرى الطبيب وأبو الفداء وغيرهم . وقال إن الجنتين اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا» (١) كانتا فى تنيس لأخوين من بيت الملك قليمون من نسل اتريب بن قبطيم. وتكلم عن الشهرة العريضة التى أصابتها هذه المدينة فى صناعة الثياب وتكلم عن الحياة الاجتماعية بين سكانها. ووضع بحثا مستفيضا عن حلوان وقال إنها كانت قرية مشهورة عامرة بالسكان منذ أكثر من ألف وثمانمائة وخمسين عاما خلت ثم أخنى عليها الدهر فغدت بلدا مهجورا حتى جددها وعمرها عبد العزيز بن مروان الذى ولى حكم مصر وأعجب بهوائها فنزل بها سنة ٧٠ هـ ليكون بمنجاة من الطاعون الذى اتخذ مظهر الوباء فى تلك السنة ، وشيد بها المساجد والدور وغرس النخيل والكروم . وتابع المؤلف تاريخ حلوان عبر العصور فتكلم عن زيارة المأمون الخليفة العباسى لها سنة ٢١٧هـ وذكر طرفا من زيارة هذا الخليفة لمصر ، وتعرض لخواص المياه الكبريتية التى تنبثق من عين حلوان وأهميتها فى علاج الأمراض الجلدية ، وشرح مظاهر الاهتمام بتعمير حلوان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر من إنشاء خط حديدى يربطها بالقاهرة . ولم يكن هذا الخط يبدأ من محطة باب اللوق كما هو الحال الآن ، بل كان يبدأ من قره ميدان بالقلعة ثم يمر على مقابر المماليك وشرق ضريح الإمام الشافعى إلى البساتين ويأخذ مساره الحالى . كما تكلم عن إنشاء حمامات للمياه الكبريتية بها وشق شوارع متسعة ومستقيمة من النيل إلى الحمامات وبناء فندق سياحى وفندق آخر للعلاج وذكر التسعيرة التى وضعت للنازلين فيه بمختلف الدرجات ، وعما اذا كانت الإقامة تشمل تناول الطعام أو مقصورة على المبيت . وتكلم عن التيسيرات التى قدمتها الحكومة لتشجيع الأهالى على بناء دورهم فى حلوان ، واستعرض النشاط الاقتصادى فيها وازدياد حركة البناء والتعمير خلال السنوات من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٧ ومن الوقائع . التاريخية التى تعرض لها فى هذا الجزء الهدية التى أرسلها المقوقس ، ويصفه على مبارك بأنه صاحب الإسكندرية ، إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان من ضمنها مارية وأختها سيرين ، ومارية هى التى ولدت للنبى ابنه ابراهيم وخلص من ذلك إلى القول بأن ثلاثة من الأنبياء صاهروا الأقباط هم ابراهيم الخليل تسرى بهاجر أم اسماعيل ، ويوسف تزوج بابنة صاحب عين شمس التى ذكرها الله فى كتابه فقال «وغلقت الأبواب وقالت هيت لك» (١) ومحمد عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية . وتكلم عن الحياة المترفة الرتيبة التى كان يحياها المتصوفة فى خانقاه سرياقوس والتى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣) م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ولقب شيخها بلقب شيخ الشيوخ بعد أن كان هذا اللقب مقصورا على من يتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء ، كما أفاض المؤلف فى تحديد الأقاليم فى مصر التى نزلت بها القبائل العربية بعد الفتح الاسلامى وذكر دخول معاوية بن أبى سفيان مصر وولاية محمد ابن أبى بكر الصديق عليها وقتله بها . وتكلم عن نظام الخلع فى دولة المماليك وأفاض فى وصف خلع أرباب السيوف وخلع أرباب الأقلام وخلع العلماء .

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٢ والآيات التالية لها مكملة لقصة الأخوين .

(١) سورة يوسف جزء من الآية رقم ٢٣ .

ووضع بحثاً عن نظام النيابة فى دولتى المماليك وشرح وظيفة النائب الذى كان يقوم مقام السلطان وكان صاحب هذه الوظيفة يسمى ملك الأمراء ونائب الحضرة وكافل الممالك ، وتكلم عن اختصاصاته المتشعبة ووضعه فى الدولة وفى الاحتفالات الرسمية وفى المواكب ، ووصف دار النيابة التى بناها الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ .

وانتقل المؤلف من النيابة إلى الوزارة فتكلم عنها على غرار ما فعل فى كلامه عن النيابة . وتكلم عن التجربة التى قامت بها الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لزراعة أشجار التوت لتربية دود القز ، وذكر أن الحكومة حفرت أكثر من ألف ساقية واستدعت خبراء من الآستانة لتدريب المصريين ، كما زرعت أيضاً فى نفس المنطقة وهى رأس الوادى بمديرية الشرقية أشجار الزيتون لاستخراج الزيت واستخدامه فى صناعة الصابون . وفى هذا الجزء شرح المؤلف بعض المصطلحات التاريخية نذكر منها على سبيل المثال : بغلطاق ، بغلوطاق ، بغالطيق ، صولق ، صوالق ، الحياصة ، حوائص ، شيوب ، زراقة ، قراسنقر ، آق سنقر ، شنتور ، شنتار ، طبلخانة ، أمراء الطبلخانة ، شاد الشراخاناه ، شاد الدواوين ، شاد العمائر ، شاد الخاص ، شاد الزردخانة ، شاد الحوش ، شادية ، أمير أخور ، جشار ، تشاهير ، مروات ، الخانقاه . ومن المدن التى أرخ لها فى هذا الجزء ، عدا التى ذكرناها ، أبو قرقاص ويكتبها بوقرقاص ، وبولاق الدكرور ، ويكتبها بولاق التكرور ، بورسعيد ، تلا ، جرجا ، الجيزة . وترجم فى هذا الجزء لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها الشيخ البوصيرى صاحب البردة وابن خلكان والشيخ على البيومى من المتصوفة وابن السالوس وزير الأشرف خليل والشيخ حسن الحداوى من علماء الأزهر وهو لا ينسب إلى ميناء جده بالحجاز بل ينسب إلى الحدية وهى قرية بمحافظة البحيرة ، على الشاطىء الغربى لفرع رشيد وجنوبى مدينة رشيد ، وترجم لبعض الصوفية الذين عاشوا أو دفنوا فى خانقاه سرياقوس ، وترجم أيضاً للأمير عيسى شيخ عرب بنى عونة ولشيخ العرب سويلم بن جيب بالقليوبية وابنيه سالم وسويلم . كما ترجم لبعض المستشرقين الفرنسيين مثل كاترمير (١٧٨٢–١٨٥٧) وساسى (١٧٥٨–١٨٣٨) وهربلوبرتلمى (١٦٢٥ — ١٦٩٥) . وقد غطى على مبارك فى هذا الجزء بقية البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الباء ثم أحرف التاء والجيم والحاء والخاء والدال .

* * *

وحفل الجزء الحادى عشر بذكر عدد من أمهات المدن ذات الشهرة التاريخية فتكلم عن دمنهور وتاريخها فى العصور القديمة والحديثة وتعرض بوجه خاص لأحداث الحملة الفرنسية المتصلة بدمنهور والفترة التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر والحرب بين محمد على ومحمد الألفى والأزمة التى واجهها محمد على حين صدر مرسوم من السلطان بنقله من مصر إلى سالونيك ومؤازرة علماء مصر لمحمد على إبان هذه الأزمة واستعرض تاريخ مدينة دمياط الحافل إبان الحروب الصليبية وأفاض فى شرح أحداث الفترة الحرجة التى تولت فيها شجر الدر مقاليد الأمور عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ريثما يحضر توران شاه ابن الملك المتوفى وكانت حملة لويس التاسع قد نجحت فى الاستيلاء على دمياط والوصول إلى المنصورة تجاه البحر الصغير . ومما هو جدير بالذكر أن على مبارك يسمى قائد الحملة روا دفرنس أى ملك فرنسا وهى نفس التسمية التى أطلقها من قبل المقريزى فى خططه (١) وانتقل إلى تاريخ دمياط ابان الحملة الفرنسية ثم فى فترة الصراع على

(١) المقريزى : الخطط . طبعة الشياح — لبنان — ثلاث مجلدات المجلد الأول الجزء الثانى ص ص ٣٩٠ — ٣٩٢ .

الحكم فى مصر بين محمد باشا خسرو الوالى العثمانى وبين عثمان بك البرديسى ، وتكلم عن مساجدها ومدارسها ووصف سمكة تظهر فى مياه دمياط يطلق عليها فرس البحر وذكر منافعها . وسار على نفس النهج عند كلامه على رشيد وأفاض فى وصف المدينة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لسكانها وأخذ يعدد أنواع المحصولات التى تشتهر بها وذكر أنواع البلح وأصناف الأرز واستعرض تاريخ رشيد فى العصور الوسطى ثم فى القرن التاسع عشر وأطال فى الكلام على الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ وانتصار المصريين على البريطانيين فى معركتى رشيد والحماد . ولما جاء ذكر بلدة دندرة وصف معبدها وتاريخ إنشائه وانتقل منه إلى قصة إيزيس وأوزوريس وهاتور . ومن المصطلحات التاريخية التى شرحها المؤلف فى هذا الجزء : خشداش ، خشداشية ، طواشى ، الغزارة ، الحواء ، البرك . ومن المدن التى أرخ لها فى هذا الجزء — عدا التى ذكرناها — دراو ، الدر ، ديروط ، دشنا ، دكرنس ، الزقازيق ، زفتى . وقد ترجم لابراهيم الدسوقى والوزير الصاحب ولعدد وافر من علماء دمياط ودمنهور ورشيد كما ترجم للسائح الفرنسى سافارى ويسميه « سوارى السياح الفرنساوى » وقد زار مصر فى القرن الثامن عشر ، كما ترجم لسائح فرنسى آخر هو الأب سيكار ويصفه بأنه « سياح فرنساوى قسيس من طائفة الجزويت » وترجم أيضاً لعلى باشا الجزائرلى أو الطرابلسى أو على برغل وهو الوالى العثمانى الذى لقى حتفه فى مطلع سنة ١٨٠٤ فى القرين بصحراء الشرقية على يد الأمراء المماليك . كما ترجم لبعض أعضاء البعثات العلمية الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى أوربا فى القرن التاسع عشر . ويغلب على هذا الجزء — الحادى عشر — فى مجموعة طابع التراجم . وذكر الزوايا المنتشرة فى أنحاء البلاد المصرية . وقد تضمن هذا الجزء ذكر البلاد التى تبدأ أسماؤها بحروف الدال والذال والراء المهملة والزاى المعجمة .

* * *

وجاء الجزء الثانى عشر على غرار الأجزاء السابقة حافلا بالبحوث فى شتى الموضوعات فخاض بحثاً ضافياً عن الرزق الإحباسية ونشأتها وتطورها فى مصر الإسلامية ، وأورد نصاً حرفياً لعهد أخذ على نصارى العرب من أهل نجران فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعدة عهود أخرى أخذها عمر بن الخطاب على نصارى الشام . وتكلم عن وضع الكنائس فى ظل الإسلام مستشهداً بأحاديث نبوية وأقوال منسوبة إلى عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وما رواه الحسن البصرى . ثم تكلم عن الجزية المقررة على الذميين وفئاتها وجواز رفع نسب هذه الفئات على ذوى الدخول الكبيرة . واستعرض حوادث الزلازل العنيفة التى تعرضت لها القاهرة فى القرنين السابع والثامن الهجريين . ووصف خروج السلطان أيام دولة المماليك إلى الصيد فى سرياقوس أو شبرا . ووصف ركوب السلطان من القلعة فى الأعياد . وتكلم عن تحنيط الجثث عند قدماء المصريين وأطلق على هذه العملية تصبير الموتى . وشرح عاداتهم فى الجنازات وتكلم عن قصر أنس الوجود . وفى هذا الجزء شرح كيفية عمل السمك المقدد المعروف فى الصعيد باسم الملوحة . وأرجع سبب انتشاره إلى أن سكان البلاد التى يكثر فيها قصب السكر يستطيبون أكل السمك المقدد ، وذكر أسماء الأراضى الزراعية فى مصر تبعاً لنوعها وجودة الزراعة بها وسهولة ريها وما إلى ذلك ، وهى أسماء تبدو غريبة بالنسبة للقارى غير المتخصص فى الشئون الزراعية ، وحسبنا أن نذكر هنا من هذه الأنواع على سبيل المثال : البروبية .

الشماهة ، الشتونية ، شق الشمس ، نقاء ، وسخ مزدرع ، وسخ غالب ، مستبحر ، خرس ، إلى غير ذلك من الأسماء . والمهم أنه يعطى مواصفات لكل نوع من هذه الأراضى وأنواع الزراعات التى تجود فيها وكيفية ريها إلى غير ذلك من تفصيلات فنية . واستعرض أنواع الخضر وفوائدها ، وانتقل إلى الكلام عن بعض أنواع النباتات التى تزرع فى مصر وتستخدم فى علاج بعض الأمراض والحميات مثل النزلات المعوية والشعبية والمغص وآلام الظهر والمفاصل والربو وأمراض القلب والجرب . وتكلم عن النباتات التى يؤدى تعاطيها إلى زيادة إفراز الكبد ، وذكر منافع شجر الحناء ووصف تركيباً من زهرة الحناء تضاف إليها مواد أخرى لتفتيت الحصى فى الكليتين . وعلاج الطحال وإدرار البول . وتكلم عن منافع الكزبرة وشرح أنواع المشروبات التى تصنع من البلح أو الذرة أو الزنجبيل وكيفية إعدادها للشرب ثم تكلم عن شراب البوزة والدكاوى وغيرهما من المشروبات . ومن أهم المدن التى تعرض لها على مبارك فى هذا الجزء مدينة السويس وقد شرح معالمها ، فتكلم عن شوارعها وأسواقها ومساجدها وزواياها ووكائلها والشركات القائمة بها والنشاط التجارى والاقتصادى بها وحركة الملاحة فى مينائها وبيان البضائع الأجنبية الواردة إليها بحراً وحوض إصلاح السفن والمنائر وما إلى ذلك من منشئآت بحرية فى ميناء السويس . وتكلم عن تاريخ المدينة على عهد الحملة الفرنسية وقدوم الجنرال بونابرت إليها ، وهو يطلق عليه بانوبرتو ، وانتقل إلى النشاط الذى دب فى المدينة وفى مينائها إبان الحروب الوهابية وإبحار الحملات العسكرية التى قامت تباعاً من ميناء السويس إلى ينبع وجدة وتكلم عن المذهب الوهابى والحركة التى قادها محمد بن عبد الوهاب . وانتقل إلى تنظيم الطريق البرى Overland Route من القاهرة إلى السويس عبر الصحراء على عهد محمد على ، وتحسين الخدمة فى هذا الطريق على عهد عباس الأول ثم مد الخط الحديدى من العاصمة إلى السويس وتكلم أيضاً عن المنطقة المحيطة بمدينة السويس وأشار إلى منطقة عيون موسى وغيرها . ومن المدن الأخرى التى ورد ذكرها فى هذا الجزء أسيوط ، سمنود ، سمالوط ، السنبلاوين ، سوهاج ، شبراخيت ، شربين ، الشهداء ، شبين الكوم ، شبين القناطر وتكلم عن واحة سيوة وعادات أهلها . وذكر ثلاثة وأربعين بلداً يبدأ كل منها بكلمة شبرا مثل شبراخيت وشبرا الخيمة وشبرا النملة . ويتميز هذا الجزء من الخطط التوفيقية بأنه يحوى شرحاً لعدد وفير من المصطلحات التى شاع استعمالها فى مصر فى عصر دولتى المماليك والحكم العثمانى وبخاصة فى الجيش والإدارة وأنظمة الحكم والألعاب والصناعات اليدوية الدقيقة ونذكر منها على سبيل المثال : الكراتة ، شبابه ، طبردارية ، النمشة ، الخاصكى ، الجمقدار ، الكفت ، الأكفات ، التزميك ، الشربوش ، الهناب ، حامل المزرة ، اليسق ، كتّاب الدرج ، كتّاب الاست ، الطشتخاناه ، الركابخانه ، الحوائجخانة . وتضمن هذا الجزء أيضاً تراجم لشخصيات كثيرة حسبنا أن نذكر منها هنا : الجاحظ وابن الأثير ومعروف الكرخى وشمس الدين السخاوى المؤرخ وجلال الدين السيوطى والعارف السوهاجى وزكريا الأنصارى وأبو بكر الماردانى أحد كبار رجال الدولة الطولونية . وقد حبس على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة أوقافاً وضياعاً كان من بينها أسيوط . وكان يصل إيراد هذه الأوقاف إلى مائة ألف دينار فى السنة . كما ترجم لنابليون بونابرت ترجمة ضافية منذ مولده حتى وفاته فى منفاه ثم إحضار « رمته » أى جثته إلى فرنسا لدفنها فى باريس على عهد

الملك لوى فيليب وترجم أيضاً لعالم فرنسى هو لارشيه Larcher (١٧٢٦ – ١٨١٢) الذى ترجم كتاب هيرودوت وعلق عليه ، كما ترجم للمؤرخ مانيتون . وقد تناول هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف السين وحرف الشين المعجمة .

* * *

واحتوى الجزء الثالث عشر موضوعات شتى فى التاريخ القديم والوسيط والحديث فمن موضوعات التاريخ القديم تعرضه لمدينتى صا الحجر وصان الحجر فقد استعرض تاريخهما فى العصور القديمة . كما تكلم عن مدينة طينة أو بيلوز Péluse وهى فى موقع بورسعيد الحالية والدور الذى لعبته هذه المدينة فى التاريخ القديم . على أن أهم ما جاء فى هذا الجزء خاصاً بالتاريخ القديم كان بلا شك مدينة طيبة – الأقصر الحالية – ويسميها المؤلف طيوه ، فقد أفاض فى شرح آثارها سواء معبد الكرنك أو آثار البر الغربى مثل مدينة هابو – ويسميها آبو – والرمسيوم والقرنة وسائر الآثار التى حفل بها وادى الملوك . أما الموضوعات التى تعرض لها فى التاريخ الوسيط فكان نظام البريد فى الدولة الإسلامية عامة وفى مصر خاصة . وتولى شجر الدر حكم مصر . وشرح الموجات البشرية من التتار الذين زحفوا على الشرق العربى وسقوط بغداد فى أيديهم وانتقل إلى الكلام عن مدينة بغداد وتاريخها . وتكلم عن الهدايا التى كان يتبادلها حكام البلاد الإفريقية فيما بينهم ، ووصف صحراء عيذاب والطريق الذى يمر عبر الصحراء من قفط إلى ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر وأسماء المحطات الواقعة على هذا الطريق . وتكلم عن معدن الزمرد ومواطن استخراجه فى الصعيد الأعلى ابتداء من قفط بمديرية قنا حتى أسوان وشرح خواص هذا المعدن واختلاف لونه حسب فصول السنة وحالة الطقس ، وقال إنه يزداد توهجاً فى ضوء القمر حتى يكتمل بدرا . ثم انتقل إلى الزبرجد وأنواعه وخواصه . ومن المصطلحات التى شرحها فى هذا الجزء : الشاليس ، اليزكية ، الكراع ، استادار ، الاقامات بمعنى الميرة . ومن المدن التى جاء ذكرها فى هذا الجزء طنطا ، طهطا ، طلخا ، طما ، طوخ . وترجم لعدة شخصيات منها السيد أحمد البدوى ورفاعة رافع الطهطاوى وعبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . وقد شمل هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بأحرف الصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة .

* * *

وحفل الجزء الرابع عشر بعدة بحوث ووثائق تاريخية فتكلم ، وهو يذكر أسماء البلاد المصرية ، عن عجرود . وكانت إحدى محطات قافلة الحج المصرية ، وهى على بعد عشرين كيلو متراً غرب مدينة السويس ، وتقع حالياً على الخط الحديدى الصحراوى الذى يصل بين القاهرة والسويس وتقف عندها القطارات الحديدية التى تسير على هذا الخط . وكأن هذه المحطة كانت نقطة انطلاق فكرى لعلى مبارك فأخذ يذكر معلومات ضافية وطريفة عن الطريق التى كانت تسلكها قافلة الحج مارة بعجرود والمدن والدروب والمسالك والمغارات وآبار الماء والخانات والدور الواقعة على طريق الحج فى كل من مصر وشبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ويصف مهام أمير الحج والترتيب الذى يوضع للحجاج فى ظعنهم وإقامتهم والأخطار التى يتعرضون لها فى الطريق من هجوم العربان عليهم وذكر أسماء القبائل والمناطق التى تسيطر عليها هذه القبائل . وتكلم عن وصول حجاج مصر والشام إلى رابغ حيث يبدأ الإحرام . وانتقل إلى عيذاب كميناء تقصده

السفن القادمة من الهند واليمن، وكمركز يباع فيه اللؤلؤ الذى يستخرج من الجزر القريبة من الميناء ، وكطريق يسلكه بعض الحجاج فى الوجه القبلى إلى الحجاز . ويذكر معلومات طريفة للغاية عن منطقة عيذاب وعادات سكانها والمتاعب التى يلقاها الحجيج القادمون من قوص إلى عيذاب فى طريقهم إلى جدة وكيف كان يتحكم سكانها فيهم ويشحنون بهم المراكب ويطلقون عليها الجلاب (جمع جلبة) فيجلس الحجاج وكأن السفن أقفاص مليئة بالدجاج حتى يستوفى صاحب الجلبة ثمنها من رحلة واحدة وهو لا يبالى بالأخطار التى تتعرض لها الجلبة وهى تجتاز البحر الأحمر . وانتهز المؤلف فرصة كلامه عن عيذاب فربط بين هذا الميناء وبين رحلة ابن بطوطة من إدفو إلى عيذاب وكيف تعذر عليه مواصلة رحلته إلى جدة فعاد من عيذاب إلى قوص. ومنها صعد فى النيل إلى القاهرة ثم واصل سفره إلى الشام ماراً ببلبيس والصالحية والعريش ورفح. وتكلم عن القدس ومدن الرملة وطبرية وبيروت ودمشق وقبور الأنبياء الصالحين فى بعض هذه المدن الشامية مثل قبور إبراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ويونس وصالح وشعيب وسليمان وخالد بن الوليد وأبى عبيده الجراح وعمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول عليه السلام . ثم انتقل إلى العراق فذكر أن قبر على فى مدينة مشهد على من بلاد العراق . وأن أهل هذه المدينة كلهم رافضة أى شيعة ويحكمها نقيب الأشراف دون سواه ووصف المقبرة. ثم تكلم عن قرية أم عبيدة فى العراق حيث دفن بها أحمد الرفاعى . وانتقل إلى مسجد على بن أبى طالب فى مدينة البصرة ومشهد الإمام الحسين بمدينة كربلاء . وقبرى الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى بغداد . وتضمن هذا الجزء أيضاً بحثاً عن العلاقات التجارية والسياسية والحربية فى العصور الوسطى بين مصر وبين بعض الدول الأوربية مثل فرنسا والبندقية وجنوه وفلورنسه وغيرها من دول وإمارات حوض البحر المتوسط. وتكلم فى موضوع تعيين قناصل لبعض هذه الدول فى مصر منذ أيام الدولة الأيوبية ودولتى المماليك البحرية والبرجية وتتبع نشاطهم ومقار عملهم ومدى نجاحهم أو فشلهم فى رعاية مصالح بلادهم ، ثم انتقل إلى موضوع المحاولات التى بذلت لإيصال البحرين المتوسط والأحمر قبل شق قناة السويس . كما تضمن هذا الجزء بحثاً عن ترعة الفرعونية شرح فيه الأخطار التى كانت تتعرض لها أراضى الوجه البحرى من مياه هذه الترعة وما كان يتهددها من الغرق ، وتابع الجهود التى بذلتها السلطات الحكومية للمحافظة على جسور هذه الترعة منذ أواخر عصر المماليك فى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢م) وإبان الاحتلال الفرنسى وأوائل حكم محمد على حتى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) م . وانتقل إلى مذبحة المماليك بالقلعة ويسميها على مبارك « وقعة المماليك بقلعة الجبل بمصر » ويعلق عليها بقوله « وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً . » ومن الأبحاث التى تضمنها هذا الجزء تدابير الحكومة المصرية فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى للحد من استهلاك الأقمشة المستوردة من جمهورية البندقية . إذ كانت سيدات مصر يغالين فى تفصيل ملابسهن منها، وكانت مودة ذلك الوقت تفصيل ملابس فضفاضة واسعة للغاية الأمر الذى أدى إلى استهلاك كميات كبيرة من الأقمشة الأوربية الفاخرة. فحصل « التنبيه » فى الشوارع بالكف عن ذلك . وفى أكتوبر ١٣٩٠ نزل رجال الحكومة إلى أسواق القاهرة وشوارعها وقطعوا أكمام الملابس الواسعة التى كان النساء يرتدينها . وانتقل المؤلف إلى بحث فى التاريخ القديم عن منطقة العرابة المدفونة

ويسميها « العربات المدفونة » فى أبيدوس على مقربة من البلينا بمحافظة سوهاج ، فشرح آثار هذه المنطقة وأسماء الشمس المقدسة عند قدماء المصرين وغيرهم من شعوب الشرق القديم . ومن الوثائق التى نشرها على مبارك فى هذا الجزء نذكر ثلاثاً : هدنة عقدت بين حكومة جنوة ودولة المماليك البحرية على عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، ووثيقة ثانية تاريخها ٤٢٢ ﻫ باسم « دستور يتضمن العامر والغامر من أرض الفيوم » « تشمل بياناً عن شبكة الترع التى كانت منتشرة فى إقليم الفيوم وقتذاك . أما الوثيقة الثالثة فمنشور أذاعه غازان ملك التتار على سكان مدينة دمشق بعد معركة مجمع المروج سنة ١٢٩٨ أعلن فيه لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وندد بسياسة دولة المماليك ، وكان سلطانها وقتئذاك هو الناصر محمد بن قلاوون . وشرح على مبارك على عادته بعضاً من المصطلحات التى كانت ذائعة فى العصور الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال : الحراوة ، الندب ، التنبول ، الطرائد ، الشوانى ، الحراقات ، بطس ، العشاريات ، بيكار ، بياكير . ومن المدن أو البلاد التى كتب عن تاريخها فى هذا الجزء : العريش ، العسيرات ، العطف ، فارسكور ، فاقوس ، فرشوط ، الفرما ، الفشن ، الشيخ فضل ، فوه ، الفيوم القصير ، قفط ، القلزم ، قليوب ، قنا ، قوص ، القوصية ، قويسنا . .وفى هذا الجزء تراجم لشخصيات عديدة نذكر منها : ابن خلدون وابن بطوطة وعبد الوهاب الشعرانى إمام المتصوفة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى وبعض أفراد أسرته والإمام الليث ابن سعد وابنه الإمام شعيب والبهاء زهير والشيخ حسن العدوى وأبو الحسن الشاذلى والكندى وعبد الرحيم القنائى والشيخ سليمان الفيومى . وترجم أيضاً لعدد وافر من علماء فرشوط والفيوم وفارسكور وقنا غير ما سبق ذكرهم . وقد غطى هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحروف العين المهملة ثم الغين المعجمة والفاء والقاف .

* * *

واستهل على مبارك الجزء الخامس عشر بالكلام عن مدينة كانوب ، وتقع مكان ضاحية أبى قير الحالية ، واستعرض تاريخها زمن الفراعنة وفى العصرين البطلمى والرومانى ومعابدها وبخاصة معبد سيرابيس الذى كان يقصده المصريون طوال العام لا للتبرك والزيارة فحسب ، بل لما كانت تتخلل الحياة فى كانوب من مجون وفسق بسبب كثرة النساء العاهرات وأماكن المجون واللهو غير البرىء ، وخلص على مبارك من ذلك إلى القول بأن كهنة معبد سيرابيس كانوا أغنى رجال الدين فى مصر قاطبة . ووقف المؤلف وقفة طويلة للغاية عند ذكر بلدة المطرية من ضواحى القاهرة وأثبت أن المطرية ليست عين شمس وإنما هى على مقربة منها ، وتكلم عن مسلاتها العديدة التى نقلت منها إلى رومه إبان الحكم الرومانى ، ثم انتقل إلى هيا كلها قبل دخول المسيحية إلى مصر وأخذ يستعرض تاريخها عبر العصور وتتبع رحلة السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس إلى مصر وتجوالهم فى مختلف البلاد المصرية وإقامتهم فى المطرية . وتكلم عن الأحداث التاريخية الهامة التى وقعت فى منطقة المطرية إبان الحكم الإسلامى حتى وصل إلى معركة الريدانية التى لقى فيها السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الهزيمة على يد السلطان العثمانى سليم الأول ، وشرح الأيام العصيبة التى سبقت ولحقت هذه المعركة ، وإقامة السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر ثم رحيله إلى الآستانة والقرارات التى اتخذها عند رحيله ،

ونشر القصيدة المشهورة التى نظمها ابن اياس يرثى فيها حالة مصر بعد أن ضاع استقلالها وأضحت ولاية عثمانية واحتل أرضها جنود عثمانيون حليقو الذقون يضعون على رءوسهم الطراطير . ووصفهم بأنهم ليسوا على حظ موفور من الشجاعة لأنهم يعتمدون فى الحرب على سلاح المدفعية، وسجل فى هذه القصيدة أعمال التخريب التى ارتكبها العثمانيون فى أحياء القاهرة ومساجدها وتكدس جثث الموتى فى الشوارع كأنها ذبائح عيد الأضحى . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن موقعة عين شمس بين الفرنسيين والعثمانيين وهزيمة الأخيرين (٢٠ مارس ١٨٠٠) وأفاض فى الكلام عن ثورة القاهرة الثانية وهى الثورة العارمة التى قام بها الشعب ضد الفرنسيين واستطالت ثلاثة وثلاثين يوماً وذكر مراحل هذه الثورة ودور الزعماء والشعب فيها وقد استمد من الجبرتى المادة التاريخية عنها كما نقل عنه عدة حوادث تمثل المقاومة الشعبية فى العصر العثمانى وأوائل حكم محمد على . وكان بعضها لعلماء الأزهر وقد وقفوا من الأمراء المماليك فى كل حادث وقفة تنم عن الإباء والعزة والكرامة . ونقل عن الجبرتى أيضاً قصة وقعت فى ربيع آخر ١٢٣٥ (١٧ يناير ١٨٢٠ — ١٤ فبراير ١٨٢٠) وهى تشبه فى معظم عناصرها إلى حد بعيد حادث دنشواى (١٩٠٦) مع اختلاف النتائج فى كل منها بطبيعة الحال (١) . وتكلم عن المحاولة التى قامت بها الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستيراد أنواع معينة من الأغنام من أوربا وتربيتها فى مصر بغية استغلال أصوافها وشرح بالتفصيل المراحل التى مرت بها هذه العملية واجراءات الحكومة لتنظيمها . ومن الأبحاث التى جاءت فى هذا الجزء الحملة العسكرية التى أرسلها السلطان العثمانى إلى مصر بقيادة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة فى مصر . ونشر صورة الفرمان الذى أرسله حسن باشا إلى أولاد حبيب بناحية دجوة . ومن المصطلحات التى شرحها على مبارك فى هذا الجزء : الإخراق ، البرك ، المشاعلية . نيدة البوش ، النيدة المعقودة ، الخبيص ، شجر البلسان والبسام ، عازق ، بيورلضى ، بيورلضيات . وأنواع الأعلام الحربية مثل الشطفة ، والعصابة والصنجق . ومن المدن التى تكلم عنها كفر الزيات . كفر الشيخ ، اللاهون ، المحلة الكبرى ، محلة روح . المراغا . مرصفا ، مغاغة ، ملوى ، مليج . المنصورة . منفلوط . وبالنسبة للمنصورة فقد أفاض فى الكلام عن النهضة الصناعية التى شهدتها هذه المدينة فى القرن التاسع عشر . أما منفلوط فقد أبرز معنى خاصا بها هو أنها كانت مسرحاً لحوادث القتل والشغب التى كان يلجأ إليها الأمراء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر تحدياً لحكومة القاهرة واستخفافاً بالباشا العثمانى .

---

(١) قدم رجل انجليزى من الإسكندرية إلى قرية كفر حشاد بمركز تلا بمديرية المنوفية ليصطاد بها الحمام وصوب بندقيته نحو حمامة ولكن أصابت الطلقة أحد الفلاحين فى ساقه . ورأى أحد الألبانيين هذا الحادث، وكان يمسك بيده هراوة غليظة فقال للإنجليزى : ألا تخشى أن يأتى إليك بعض الفلاحين ويضربوك على رأسك هكذا ؟ وأشار بما فى يده إلى رأس الإنجليزى . إذ كان الألبانى لا يتكلم الإنجليزية . فما كان من الإنجليزى إلا أن ضرب الألبانى برصاصة صرعته فى الحال . فاجتمع الفلاحون وقبضوا على الإنجليزى وسافروا به ومعهم القتيل إلى القاهرة وقابلوا وكيل محمد على واجتمع الألبانيون وأصروا على قتل الإنجليزى، وخشى الوكيل عاقبة هذا التصرف ، واقترح التريث حتى يستدعى القناصل ويعرض عليهم المسألة . ولكن استنكر الألبانيون تأخير قتل الإنجليزى وتعليق قتله على رأى القناصل . وطالبوا بقتله فوراً وتهددوا بنزولهم إلى حى الافرنج ونهب المساكن وقتل جميع من بها من الأجانب فلم يسع الوكيل إلا أن أمر بقتله فنزلوا به إلى الرميلة وقطعوا رأسه .

وقد ذكر فى هذا الجزء احدى عشرة قرية تتكون أسماؤها من كلمات مركبة تبدأ الكلمة الأولى فى كل منها باسم معصرة مثل معصرة اطفيح ومعصرة سمالوط ومعصرة عرفة وكلها عبارة عن قرى . كما ذكر اثنتين وثلاثين بلدة تبدأ أسماؤها المركبة بكلمة محلة مثل محلة روح ومحلة المرحوم . وحفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها المسعودى المؤرخ العربى ، وابن الحباب وابن زولاق وعبد اللطيف البغدادى والشريف الرضى وعثمان بك البرديسى والشيخ محمد الدواخلى نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الشناوى من كبار المتصوفة ، والشيخ صادومه وهو أزهرى فاسق ماجن ، وحمدان ابن الأشعث مؤسس فرقة القرامطة ، والشريف الرضى وأخيه المرتضى ، والشيخ محمد القاضى المعروف بابن فخر القضاة المنفلوطى . وترجم أيضاً لطبيبين عربيين برعا فى الطب هما أبو بكر حامد بن سمجون وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كما ترجم لعدد وافر من علماء كل من المحلة الكبرى ومرصفا والمنصورة والمنزلة . وتضمن هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الكاف ثم اللام ثم الميم .

★ ★ ★

واستهل على مبارك الجزء السادس عشر بالكلام عن مدينة منف فشرح موقعها الجغرافى وتاريخها ومعبدها ومقياس النيل الذى كان قائماً فى منطقتها وتكلم عن عبادة أبيس عند قدماء المصريين وخاض بحثاً ضافياً عن أهرام مصر وعددها وأسماء بناتها وتاريخ إقامتها والأدوات التى استخدمت فى بنائها وكيف تم تشييدها والأغراض التى استهدفها الفراعنة منها ثم المحاولات التى قام بها فريق من الملوك والحكام الأقدمين لدخول هرم الجيزة الأكبر بإحداث فجوة فيه . وتعرض للثلمة التى فتحها المأمون الخليفة العباسى فى الهرم أثناء زيارته لمصر ومحاولة أحمد بن طولون فتح الهرم .

وانتقل من الكلام عن أهرام الجيزة إلى تمثال أبى الهول ويطلق على مبارك عليه «الصنم» ويلاحظ أنه استعمل نفس التسمية التى أطلقها المقريزى فى خططه على «الصنم» (١) . ومن الموضوعات التى طرقها المؤلف حمام الرسائل التى كانت تبعث به السلطات الحكومية فى مصر فى القرن السابع الهجرى حاملة رسائل السلاطين وكبار رجال الدولة ، وقرر أن ميت عقبة بالجيزة كانت أول مراكز انطلاق الحمام الزاجل وقد بلغ عدده نحو ١٩٠٠ طائر ، ووصف طريقة حمل الرسالة تحت جناح الطائر . ومن الأبحاث الهامة التى وردت فى هذا الجزء نظام القضاء فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وإدخال عناصر عثمانية فى القضاء المصرى واستعلاء كبير القضاة العثمانى على القضاة المصريين . كما تكلم المؤلف عن ظاهرة اجتماعية فى العصر العثمانى — أو فى أوائله بتعبير أدق — هى منع النساء من الخروج إلى الأسواق خوفاً من اختلاط الجنود العثمانيين بهن وفقدانهم لياقتهم البدنية . وقد استثنيت من قرار المنع السيدات العجائز كما تقرر عدم السماح للسيدات بركوب الحمير وتقرير عقوبات رادعة على المخالفات لهذا القرار وعلى المكارية الذين يسمحون بركوب السيدات على الحمير . ومن المصطلحات التى تناولها المؤلف بالشرح فى هذا الجزء: الأورجى. الأرور . الأشل ، الحريب . ومن المدن التى أرخ لها : منوف والمنيا وميت غمر وسمنود . ويمكن أن يطلق على هذا الجزء بحق الجزء الخاص بالبلاد التى تبدأ بكلمة « منية » فقد ذكر على مبارك مائة وواحداً وأربعين بلداً تبدأ أسماؤها المركبة بهذه الكلمة . ويلاحظ أن عدداً من هذه البلاد احتفظ بهذه اللفظة دون تحوير أو تحريف ولا يزال يبدأ اسمها بها ، مثل منية الباسل ومنية الأشراف ومنية شنتنا عياش . وحدث فى أسماء البعض الآخر تحريف

(١) المقريزى : الخطط طبعة الشياح — لبنان ثلاثة مجلدات المجلد الأول الجزء الثانى ص ص ٢١٦ — ٢١٨ .

إلى كلمة ميت مثل ميت غمر وميت رهينة ميت عقبة وميت القرشي وميت فارس وميت أبوغالب وميت بره وميت حبيش القبلية وميت حبيش البحرية وميت يزيد ، كما حدث فى أسماء البعض الثالث تحريف إلى كلمة منيا ، مثل منيا القمح وإن كانت تكتب أحياناً باسمها الأصلى منية القمح وأخيراً ، تخلصت تماماً بعض البلاد من لفظة منية مثل سمنود . وقد ترجم المؤلف فى هذا الجزء لعلى بك الكبير وأحمد باشا الوالى العثمانى الذى حاول الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤) م ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الوهاب العفيفى ، وعقبة بن عامر ، وأحمد بن قاسم شيخ عرب الوجه البحرى ، وابن سندر وقصته مع عمر بن الخطاب . ولم يشمل هذا الجزء سوى أسماء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الميم .

★ ★ ★

وفى الجزء السابع عشر من الخطط التوفيقية م عن الواحات المصرية فى غرب النيل وعد سمائها والبلاد والقرى التابعة لكل منها و ل بتاريخها من أحداث وأساطير وطرق ا رت بينها وبين وادى النيل ومواردها الا ية وعادات سكانها والامتيازات المقررة لهم ك نهم من السخرة والتجنيد وشرح واجباتهم إزاء الحكومة وتتلخص فى تقديم الإبل عند الحاجة وحراسة الدروب ، واستطرد إلى الكلام عن معدن أو حجر الشب ومواطن استخراجه فى مصر وفوائده والرسوم المقررة عليه أيام دولة المماليك وطرق تصديره . وتكلم عن القبائل العربية النازلة بين الواحات ووادى النيل وتحديد منطقة كل منها . وقد قرن المادة العلمية عن الواحات بمعلومات طريفة للغاية عن بعض بلاد الواحات ، ووصف الرحلة من الفسطاط الى الواحة الخارجة ثم إلى دارفور . وقد استقى على مبارك هذه المعلومات من رحلة قام بها

الشيخ محمد بن عمر ن وسجل أحداثها فى كتاب وضعه باسم « تش لأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . على مبارك إلى وصف الآثار والقرى الواقعة طقة الممتدة من أسوان إلى وادى حلفا وتعرض ا كلبشة وأبى سمبل ثم تتبع الطريق من وادى حا دارفور والمدن التى تقع على هذا الطريق والبع التى أوفدتها الحكومة المصرية فى سنة ٣ (١٨٧٦) م من المهندسين والأطباء والعـ ين لاستكشاف أقرب طريق إلى تلك الجهة تم نشاء ما يلزم فيها من محطات ، وتكلم عن ن الانثوجرافى لسكان بلاد النوبة وعادات ـب الذين يسافرون فى القوافل التى كانت تسير بين شطرى الوادى ، وتكلم عن بعض الأديرة وانتقل منها الى غزو الفرس لمصر ثم الى صناعة النطرون ومواطن استخراجه فى مصر ، واعتمد فى ذكر المادة العلمية على ماكتبه علماء الحملة الفرنسية فى مصر عن وادى النطرون وصناعته والطريق من وادى ون إلى الطرانة . وتكلم عن مشروعات ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر لايجاد طريق مائى يه السفن من منف وغيرها من بلاد الص ت البحر الأحمر مباشرة . ومن البحوث ه التى جاءت فى هذا الجزء عادة الفراعنة ع الثيران التى تقدم قرابين لآلهتهم . وأبرز ـن المصريين على أن يكون الثور خاليا من الأسود أو الأبيض احتراما للعجل أبيس الذى كان يتميز ببقع سوداء وبيضاء ، وذكر معلومات إجتماعية ودينية طريفة للغاية فى موضوع تقاليد المصريين ازاء الثيران والعجول ، واستطر براهمة الهنود الذين يمتنعون عن أكل لحم البقر . وفى هذا الجزء نشر المؤلف وثيقة الوقفية التى أوقف فيها السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦) م

قرية وراق الحضر شمال انبابة بالجيزة على الحرمين الشريفين . ومن البلاد التى أرخ لها فى هذا الجزء : نبروه وتكلم عن مدرسة الزراعة التى انشئت بها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كما أرخ لبلاد أخرى منها ههيا ودنقلة والفاشر ودارفور . ومن تراجم الشخصيات : الشيخ محمد النشرتى شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدى وبعض ذويه والشيخ حسونة النواوى والشيخ محمد اسماعيل النفراوى والشيخ شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب فى فنون الادب ، وعرض على مبارك عرضا سريعا لأجزاء هذا الكتاب ، كما ترجم لوالد مؤلفه الشيخ تاج الدين النويرى والشيخ محمد عمر التونسى .

وقد أنهى على مبارك عرض البلاد المصرية فى الجزء السابع عشر بقرية اليهودية إحدى قرى مديرية البحيرة وترجم لأحد علمائها وهو الشيخ احمد برغوث بالعبارة التقليدية التى درج عليها الجبرتى وغيره «قدم الأزهر وتفقه على مشايخ العصر ومهر فى المعقول والمنقول وتصدى للتدريس وانتفعت به الطلبة» ثم يختم هذه الخطط عن البلاد المصرية بقوله « اعلم أن الكلام على خطط القاهرة من المهمات التى اعتنى بها أفاضل العلماء والمؤرخين ورؤساؤهم قديما» وقال إن الخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لانه يخط عند التحديد ، واستعرض مؤلفى كتب الخطط من المؤرخين العرب ، فقال إن أولهم أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، وتابع اسماء زملائه الذين كتبوا فى الخطط حتى انتهى إلى المقريزى .

★ ★ ★

وأفرد على مبارك الجزء الثامن عشر من الخطط التوفيقية للحديث عن مقياس النيل منذ عصور الفراعنة حتى القرن التاسع عشر الميلادى . وقد قدم له بالكلام عن أهمية قياس درجة فيضان النيل فى كل سنة ، لأن القياس هو القاعدة فى ربط الضرائب وتوزيعها على البلاد على أساس أن الفلاحين لايستطيعون زراعة الأرض وبالتالى الحصول على الإنتاج الزراعى الا اذا سقيت الأرض بماء النيل . وانتقل إلى المقاييس التى استخدمت أيام قدماء المصريين فى قياس ارتفاع الفيضان ، وكيف كانت آلة القياس تودع فى معبد أطلق عليه اسم سيرابيس أى معبد النيل ، وكان كهنة هذا المعبد هم المخصصون لاستعمال آلة المقياس . وتظهر فى الخطط التوفيقية للمرة الأولى والأخيرة رسوم هى أشكال المقاييس المختلفة وقد نقلها عن الرسوم الموجودة على الآثار المصرية ومما ذكره هيرودوت . ثم تكلم عن المقياس فى مدة حكم الفرس والبطالمة والرومان وانتقل إلى العصر الإسلامى ، وأسهب فى الكلام عن المقياس على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وعمليات ترميمه أو إعادة بنائه فى عهود الحكم الإسلامى وواصل الحديث عن المقياس زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين وحكم أسرة محمد على . وتكلم عن جزيرة الروضة ومساجدها ودورها . وكتب فصلا عن جبر البحر وهو فصل ممتع أوضح فيه عناية المصريين البالغة باحتفالات وفاء النيل على مدار العصور ، وأشار إلى العادة التى درج عليها المصريون من إلقاء عروس فى النيل وكيف أبطلها الإسلام عند دخول العرب مصر ثم وصف عيد الشهيد عند المسيحيين فى اليوم الثامن من شهر بشنس القبطى وهو وصف لايخلو من طرافة ، وعاد يصف الاحتفالات بوفاء النيل أيام الفاطميين وتدرج على مر العصور والأحقاب حتى وصل إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤)م ، وذكر المرتبات التى قررتها الحكومة

المصرية لشيخ المقياس، ثم أورد جدولا سجل فيه الحد الأعلى الذى بلغه منسوب مياه الفيضان ارتفاعا والحد الأدنى هبوطا منذ أن فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ حتى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٢٩٦ هـ (٦٤٠–١٨٧٩ وقد استغرق هذا الجدول أربعا وسبعين صفحة الخطط التوفيقية. وختم بحثه عن المقياس بذكر ح وقعا سنة ١٨٨٧ كان أولهما العثور فى بئر المقيا عى حجر من الرخام من عهد الحملة الفرنسية و ش على أحد وجهيه باللغة الفرنسية «السنة الثامنة ء من الجمهورية» وعلى الوجه الآخر باللغة الا ية التاريخ الهجرى ١٢١٥ وهو يوافق سنة ١٠٠ أما الحادث الثانى فهو عمل مقياس مترى ء ط الرصيف الشرقى لسراى حسن باشا الما فى زاوية السلم القريب جدا من المقياس الأ . واختتم على مبارك هذا الجزء بعدة بحوث ، ر منها: التغيرات التى حدثت فى شاطىء النـ منطقة القاهرة إذ كانت هناك مناطق من العا ذكر أسماءها كانت تطل على النيل مباشرة ثم ت بعيدة عنه وخلص من ذلك إلى القول ن آخذ فى الانتقال نحو الغرب مخلفاً أرضا مغمورة به. ومن البحوث الأخرى مايته خليج أمير المؤمنين فقد أتى على تاريخه منذ أ فراعنة والفرس والرومان وكيف أعاد عمرو ابن العاص حفر هذه الترعة فى عام الرمادة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتكلم عن مسار الترعة من القاهرة حتى مصبها فى البحر الاحمر والقناطر التى انشئت عليها فى منطقة القاهرة. وأخيرا وضع بحثا مستفيضا عن تاريخ قناة السويس وركز اهتمامه على التاريخ الحديث منذ عهد الوالى محمد سعيد باشا وتكلم عن عقدى الامتياز التى ظفر بها دى لسبس والشروع فى حفر القناة سنة ١٨٥٩ ثم استعرض مراحل النزاع الحكومة المصرية وشركة القناة وتحكيم نابليون لث امبراطور فرنسا، وأسهب فى وصف حفلات تتاح القناة وعناية الخديو اسماعيل الفائقة بأوجينى امبراطورة فرنسا. ويستفاد من كتابته عن تاريخ قناة السويس أنه كان ناقما على سياسة التساهل التى درجت عليها الحكومة المصرية إزاء شركة القناة، كما كان ساخطا على مظاهر البذخ الشديد فى حفلات افتتاح القناة، وقد قال تعليقا عليها إنها تكلفت أكثر من مليون ونصف مليون جنيه وقرر أن هذا المبلغ يعادل سدس إيراد الحكومة المصرية فى سنة كاملة.

* * *

وأفرد الجزء التاسع عشر من الخطط التوفيقية لترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى فى الوجهين البحرى والقبلى. وقد قدم له باعتذار قال فيه إنه سجل فى هذا الجزء ما كان موجودا فى مصر من ترع ومنشآت وقت قيامه بتأليف الخطط التوفيقية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥)م ثم استدرك قائلا إنه «لايخفى أنه تجدد بعد ذلك أشياء أخر غير ما ذكر، وبطلت أشياء، فسبحان من لايتغير» وقد بدأ بالكلام عن رياح روضة البحرين. وانتقل الى باقى الرياحات والترع فكان يتكلم عن مسار كل ترعة من مخرجها إلى مصبها أو نقطة تلاشيها ثم طولها وعرضها وارتفاع المياه فيها زمن الفيضان وزمن التحاريق. وأسماء البلاد والنواحى والكفور والنجوع التى تمر بها والمديريات التى تروى أراضيها، وعما إذا كانت ترعة نيلية أو صيفية وتاريخ تحويلها إلى صيفية. وعما إذا كانت قديمة أو مستحدثة وتاريخ إنشائها، وعدد العمال الذين اشتغلوا فى حفرها، ومقدار الأنقاض التى تخلفت عن حفرها. والقناطر المقامة عليها وعدد عيونها وهل هى مبنية بالطوب الأحمر أو بالحجر. ثم لايقصر كلامه على

هذه البيانات أو التفصيلات بل يقرنها بالكلام عن آلات الري ويسميها «الوابورات» التى أقيمت على كل ترعة وعددها ونوعها سواء كانت آلات ثابتة ويسميها «ثوابت» أومتحركة ويطلق عليها «كوموبيل» وقوة كل منها مقدرة بالحصان وأسماء أصحابها . ويلاحظ من دراسة هذه الأسماء أن غالبية أصحاب الآلات كانوا من الأجانب والمتمصرين واليهود وأفراد أسرة محمد على وأصهارهم وكبار الملاك الزراعيين مثل عائلات ذو الفقار باشا وشريف باشا وراتب باشا والمنشاوى باشا وراغب باشا والشواربى باشا وعباس باشا يكن وأحمد باشا الدرملى والبدراوى عاشور . وتعكس دراسة هذه الأسماء صورة اجتماعية اقتصادية قاتمة هى أن الملكية الزراعية فى مصر منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت مركزة فى يد حفنة من الأجانب والأمراء والباشوات . ومما يلاحظ أن على مبارك كان يطلق على نهر النيل اسم البحر الأعظم وعلى فرع دمياط البحر الأعظم الشرقى وعلى فرع رشيد البحر الأعظم الغربى . وفى تعرضه لترعة الوادى أطلق على شركة قناة السويس عبارة « كبانية الكنال » .

* * *

أما الجزء العشرون فقد خصصه المؤلف للكلام عن العملة وتطورها . فتتبع تاريخ العملة التى كانت متداولة فى مصر منذ الفتح العربى على مر العصور التاريخية ثم انتقل إلى شكل النقود وقطر كل قطعة ذهبية أو فضية مقدرا بالمليمترات ، وعقد فصلا طويلا عن الصور والكتابة التى كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وأول من ضرب النقود فى الإسلام ، وكيفية نقش التاريخ على العملة ثم عرج على العادة التى كانت متبعة من نقش الأدعية وأسماء الملوك والولاة وألقابهم ونعوتهم على العملة . والأسماء الدالة على الرتب والوظائف ، وما كان ينقش مع أسماء الخلفاء على النقود من أسماء أبنائهم وأسماء العمال والولاة المستقلين وغير المستقلين . وانتقل المؤلف إلى الأندلس وبلاد افريقيا التى دخلها الإسلام فأفرد فصلا عن النقود التى ضربت فى هذه الأقطار ، كما كتب عدة فصول أخرى تناولت شتى الموضوعات المتصلة بالعملة ، مثل : القيمة الحقيقية للنقود ، وحدة النقود وتقييمها ، عيار النقود ، نقود الذهب ، نقود الفضة ، نسب نقود الذهب والفضة بمصر ، ثمن الذهب والفضة فى مصر ، النقود التى كانت متداولة فى مصر عند قدوم الحملة الفرنسية إليها ، مقدار النقود التى ضربت إبان سنوات الاحتلال الفرنسى وما جنته الحكومة من أرباح وقتذاك ، العملة النحاسية ويسميها «فلوس النحاس» وتضمن هذا الجزء عدة جداول إيضاحية هامة ، منها : جدول بأسماء البلاد الإسلامية التى كانت تضرب فيها العملة وقد بلغ عددها ٣٠٧ بلدة فى أوربا وأفريقيا وآسيا وكان بعضها مدنا وبعضها ولايات إسلامية والتزم فى ذكر هذه البلاد ترتيب حروف المعجم . كما وضع المؤلف ثبتا طويلا يتضمن أنواع العملة العربية الفضية والبلاد التى ضربت بها وبيان أوزانها وتواريخها وأسماء الخلفاء الذين ضربت على عهدهم هذه العملات ابتداء من عبد الملك بن مروان . ويقع هذا الثبت فى تسع وستين صفحة . ثم أردف هذا الثبت بجدول تفصيلى عن نقود مصر أوضح فيه اسم العملة ومكان وتاريخ ضربها واسم الخليفة أو السلطان أو الوالى الذى ضربت فى عهده والوزن الرسمى للعملة بالجرام والوزن الجارى والعيار الرسمى والعيار الجارى وسعرها الذى تتداول به إلى غير ذلك من بيانات فنية تفصيلية . وقد استغرق

هذا الجدول عشر صفحات كوامل . واختتم هذا الجزء الأخير من الخطط التوفيقية ببحث رائع ضاف يقع فى خمس وثلاثين صفحة تناول فيه القوة الشرائية للنقود فى مصر عبر اثنى عشر قرنا فى مختلف عهود الحكم الاسلامى من سنة ٨٧ هـ حتى ١٢٨٦ (٧٠٦ – ١٨٧٠) م واستعرض فى نظام رتيب فترات الغلاء التى مرت بالبلاد وأزمات التموين فى المواد الغذائية وكيف كان عنف المجاعات عاملا فى دفع الشعب إلى الثورة على الحكام . وكان يعمد إلى الدراسة المقارنة لأسعار مواد التموين فى أوقات الرخاء وفى أوقات الشدة . وتكلم عن تدفق العملات الاجنبية على مصر فى القرن التاسع عشر والعملات الذهبية والفضية التى ضربت فى حكم إسماعيل وكيف جعل عيار الذهب واحدا وعشرين قيراطا . والحق أن هذا البحث يعتبر من أهم البحوث التى جاءت فى الخطط التوفيقية ويعتبر مسك الختام . وقد اختتم على مبارك الخطط التوفيقية بهذه العبارات التى تنم عن سمات الرجل العالم المتواضع المتدين فقال «وإلى هنا وقف بنا جواد القلم فى مضمار البيان ، وإنا نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل سعينا مشكورا ، وعملنا متقبلا مبرورا . وأن ينفع بهذا الكتاب النفع العميم . ويجعله سببا للفوز لديه بجنات النعيم . والمرجو ممن اطلع عليه من كل حر حسن خيمه وطاب أديمه أن يسبل على مايعثر عليه من الهفوات جميل الأستار ، فقلما يسلم جواد من عثار . سيما والإنسان محل الخطأ والنسيان . والحمد لله على التمام ، والصلاة والسلام على من هو للأنبياء والمرسلين ختام ، وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » .

مصادر ومراجع الخطط التوفيقية

تقلد على مبارك عديد المناصب الوزارية على عهد الخديو اسماعيل ثم الخديو توفيق فعين ، على فترات متصلة حينا ومتقاربة حينا آخر ومتباعدة حينا ثالثا ، وزيرا للأشغال والأوقاف والمعارف كما تقلد الإدارة العامة لمصلحة السكك الحديدية . ولا شك أنه استفاد من وجوده وزيرا فى هذه الوزارات فرجع الى محفوظات كل وزارة واستقى منها المادة العلمية اللازمة فى إعداد الكثير من الأبحاث التى وردت فى الخطط التوفيقية . وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الجزء التاسع عشر يحوى تفصيلات ضافية فنية عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى . ولا يستطيع باحث أن يكتب بمثل هذه الإفاضة والدقة والإحصائيات عن شبكة الترع الموجودة فى مصر الا إذا كانت سجلات وزارة الأشغال ميسرة أمامه يستقى منها المادة العلمية . ويكفى أيضا أن نشير إلى أنه ذكر ثلاثة وعشرين فرعا تخرج من ترعة المحمودية وخاض فى تفاصيل فنية هندسية عنها . وقس على ذلك سجلات وزارة الأوقاف حيث توجد الوثائق والحجج التى أوقف فيها حكام مصر وغيرهم من أهل الخير الأراضى الزراعية وغيرها من العقارات على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والحرمين الشريفين فى مكة والمدينة . كما استمد من سجلات وزارة المعارف المادة الغزيرة عن المدارس وما يتصل بها . واستفاد من وجوده مديرا عاما للسكك الحديدية فرجع إلى الأوراق الرسمية عند كتابته عن الشبكة الحديدية فى مصر . وعلى هذا فإن المصدر الأول للخطط التوفيقية كان الوثائق والأوراق الرسمية الموجودة فى وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف ومصلحة السكك الحديدية وغيرها من دواوين الحكومة .

وعلى مبارك يجيد اللغة الفرنسية وقد تعلمها اثناء وجوده فى فرنسا عضوا فى بعثة الأنجال واستغل

معرفته بالفرنسية فى الرجوع الى الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية عن مصر فى عشرين جزءا باسم «وصف مصر» (١) ويطلق عليها على مبارك حينا «خطط الفرنساوية» (٢) وحينا آخر «خطط مصر للفرنساوية» (٣) وكأنه يريد أن يؤكد إجادته للغة الفرنسية فلا يعتمد على هذه الموسوعة الفرنسية فحسب بل يعتمد على الترجمة الفرنسية التى قام بها المستشرق الفرنسى كاترمير Etienne Quatremère لكتاب المقريزى «السلوك لمعرفة دول الملوك» فكثيرا مايصادف الباحث فى الخطط التوفيقية هذه العبارة «نقله كترمير عن كتاب السلوك» واعتمد ايضا على بحوث المستشرق الفرنسى دى ساسى de Sacy . كما استغل معرفته باللغة الفرنسية فى الرجوع إلى كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل فانسلب Vansleb الذى زار مصر سنة ١٦٧٢ (٤) والرحالة سافارى Savarri ويسميه على مبارك «سوارى السواح الفرنساوى» (٥) واعتمد على رحلة «ولين الفرنساوى» (٦) ورجع الى كتاب كلوت بك ويسميه قولوط بك (٧) ، والى قاموس الجغرافية الافرنجى ومنه استمد المادة العلمية لتراجم الشخصيات الأجنبية التى يتصل نشاطها بتاريخ مصر . وفى كتابة تاريخ مصر القديم رجع الى كتب العلماء

1) Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée francaise publié par les ordres de S.M. L'Empereur Napoléon le Grand. Paris. Imprimerie impériale (1809 — 1822).

(٢) ج ٧ ص ٤٣ .
(٣) ج ٢٠ ص ٤ .
(٤) ج ١٥ ص ٥٠ .
(٥) ج ١١ ص ٧٥ .
(٦) ج ٧ ص ١٦ .
(٧) ج ٧ ص ٥٠ .

الاجانب الذين كتبوا فى قديما أو حديثا أو قاموا بأعمال البحث والتنقيب فى الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر ونذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال هيرودوت(١) وديودور الصقلى وسترابون(٢) وماريبت(٣) وشانبليون (٤) .

وفى الخطط التوفيقية تبرز سمات مؤلفها فاذا هى صفات الرجل العالم الذى يتميز بالأمانة العلمية وينأى بنفسه عن مواطن أو شبهات السرقة الأدبية بمصطلح الوقت الحاضر الذى نعيش فيه — فهو حريص دائما على أن يذكر اسم المصدر أو المرجع الذى أخذ عنه . وكان يذكر أحيانا اسم الكتاب فقط واحيانا اخرى اسم مؤلفه واحيانا قليلة يجمع بين اسم الكتاب واسم المؤلف واحيانا لايذكر اسم الكتاب كاملا . ومن مظاهر الأمانة العلمية التى تميز بها على مبارك فى الخطط التوفيقية أنه قرر قبل ان يتكلم عن تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ويؤرخ للبطاركة الأقباط الارثوذكس منذ سنة ١٢٦٢ م حتى سنة ١٨٧٥ انه اعتمد فى جمع المادة العلمية على «أكابر القسس الشهيرة بمصر» (٥) كما سجل أنه استفاد من الأبحاث التى قام بها العالم المصرى محمود الفلكى عن جدران أسوار الإسكندرية (٦) .

ومن المراجع الرئيسية التى استقت منها الخطط التوفيقية مادتها العلمية مؤلفات المقريزى وهى الخطط ، ودرر العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة (ج ٨ ص ١٧) ، والبيان والإعراب فيمن دخل مصر من

(١) ج ٩ ص ٦٤ .
(٢) ج ٧ ص ٣٧ ، ج ٩ ص ٦٧ .
(٣) ج ١٤ ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) ج ٨ ص ٣١ .
(٥) ج ٦ ص ٧٢ .
(٦) ج ٧ ص ٣٥ .

الأعراب (ج ١٢ ص ١٠٥) والترجمة الفرنسية لكتاب السلوك والتى سبقت الإشارة اليها ، وابن اياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وكذلك الجبرتى فى «عجائب الآثار» .

ولا نستطيع فى هذا البحث المحدود النطاق ان نستعرض جميع مراجع الخطط التوفيقية ويكفى ان نذكر بعضا منها : ابن جزلة خواص : منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة (ج ٨ ص ٢٠) ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ج ٩ ص ٧٠) ، ابن العوام : كتاب الزراعة (ج ٩ ص ٨٥) ابن زولاق : سيرة الإمام المعز لدين الله (ج ١٥ ص ٥٦) ، ابن عباد : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية (ج ١٤ ص ٥٧) وابن بطوطه فى رحلته ، وابن جبير فى رحلته : ذكر مشاهد بعض أصحاب النبى والتابعين بقرافة مصر ، ورحلة النابلسى ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، وابن أبى السرور البكرى . قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وابن دقماق ، وابن المتوج ، وابن كثير ، وابن الصباغ : فضائل الأئمة (ج ٥ ص ١٦) وابن الطولونى : النزهة السنية فى اخبار الخلفاء والملوك المصرية ، وابو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن القيسى : تحفة الألباب (ج ١٦ ص ٢) وأبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (ج ٩ ص ٦٩) وأبو الفداء (ج ١١ ص ٢٢) وابراهيم بن عامر العبيدى : قلائد العقيان فى مفاخر آل عثمان (ج ٦ ص ٣٤ وج ١٠ ص ١٠٢) والشيخ الصبان : اسعاف الراغبين فى أهل البيت (ج ٥ ص ٦، ٢٢) والنجم الغزى : الكواكب السائرة (ج ٥ ص ١٧) والاسحاقى : نزهة الناظرين (ج ٥ ص ١٩) والمحبى : خلاصة الأثر (ج ٦ ص ٣٧) والإدريسى : نزهة المشتاق (ج ٨ ص ٩٥) والنووى : تهذيب الاسماء واللغات (ج٥ ص ٥٦) والشهاب بن أبى . التلمسانى (ج ٥ ص ٥٦) وشمس الدين السخاو الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وعماد ين شاهنشاه : تقويم البلدان (ج ١٠ ص ١٦) وع دين الاصفهانى : تاريخ السلجوقية (ج ٩ ص ٣٥) وتاريخ فتح المقدس (ج ١٠ ص ٣٨) على أبى جابر الاتباى : مناهل الصفا باتصال : السادات الوفائية بالمصطفى (ج ٣ ص) و بن عمر التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلا رب والسودان (ج ١٧ ص ٣٣) ومحمد عبد الاسحاقى : أخبار الدول فيمن تصرف فى من أرباب الدول (ج ٤ ص ١١١) وح عدوى : مشارق الأنوار (ج ٥ ص ١٠) و الدين بن الخطيب : الاحاطة بما تيسر من تاريخ رناطة ومؤلفات عبد الوهاب الشعرانى وجلال ين السيوطى والواقدى ويضاف إلى تلك المراجع كتب : ديوان الانشاء ودرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (ج ١٤ ص ٨ ، ٥٢ ، ٥٤) وغير ذلك كثير كما رجع إلى كتاب الاحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ واستقى منه الكثير من معالم تاريخ مصر الحديث . ولا يسع دارس الخطط التوفيقية إلا أن يدرك المجهود الضخم الذى بذله على مبارك فى وضع هذه الموسوعة .

تقييم الخطط التوفيقية :

نهجت الخطط التوفيقية نهجا علميا إذ استقت مادتها العلمية من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، العربية وغير العربية ، ونصت على اسمائها وقد ظهر فيها واضحا أثر الثقافتين العربية والفرنسية اللتين امتاز بهما المؤلف . وفى الخطط التوفيقية محاولة رائدة لإعادة كتابة تاريخ مصر القومى من جديد . والحق أن الخطط التوفيقية قد أضافت إلى تاريخ مصر القومى فى فرعى

التاريخ القديم والحديث مادة علمية جديدة . ففيما يختص بالتاريخ القديم استفاد على مبارك من نتائج الكشوف الأثرية التى أجريت فى مصر فى القرن التاسع عشر وما كتبه العلماء الاوربيون عن التاريخ الفرعونى . وكانت الكتب العربية التى وضعت فى العصر الاسلامى إذا تعرضت لتاريخ مصر القديم بخسته حقه لعدة أسباب منها جهل المؤلفين بحقائقه إذ كانوا لايعرفون عنه إلا خليطا من الأوهام، ولأن العصور القديمة والموغلة فى القدم كانت لاتمثل فى أذهان المؤرخين المسلمين سوى الوثنية القائمة على عبادة الأصنام وأن فراعنة مصر لم يكونوا حكاما مثاليين . يقول على مبارك عن التطور الذى طرأ على الدراسات التاريخية لمصر الفرعونية « إن أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابى وغيرها مما بقى من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطيرية المعروفة بالهيروجليفية لم تنكشف حقيقتها إلا فى هذا القرن ، فقد وقف الأفرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمبانى الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم فى توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار وألخص مافيه الفائدة من غير إطالة ولا إكثار » (١) وهكذا حملت الخطط التوفيقية إلى قراء العربية معلومات صحيحة وجديدة عن تاريخ مصر القديم .

أما فيما يختص بتاريخ مصر الحديث فقد جاءت الخطط التوفيقية سجلا حافلا لمظاهر الحضارة التى أدخلت فى مصر فى القرن التاسع عشر مثل التوسع الزراعى ومحاولة إدخال الصناعات الكبيرة فى البلاد وإنشاء القوات المسلحة البرية والبحرية والشبكة الحديدية وأسلاك البرق التى ... فى طول البلاد وعرضها والمنائر التى أقيمت ... الشواطىء المصرية لهداية السفن وإنشاء الحوض ... فى ميناء الاسكندرية ومشروع الطريق البرى ... قناة السويس إلى غير ذلك من مظاهر استعر... رفا منها من قبل . وقد شارك على مبارك فى ... بعض هذه المشروعات أو عاصرها أو كان قريب... عهد بها فكتابته عنها لها قيمتها ولها وزنها . ثم هو يضيف إلى التاريخ الحديث تراجم للشخصيات الم... . ويمكن أن نقسم هذه الشخصيات إلى فريقين ... ...ق عاش فى الفترة من وفاة المقريزى سنة ٤٤٢ ... ن أوائل حكم محمد على . وقد استقى تاريخ ... ـهم من ابن اياس وابن زنبل والجبرتى وغ... . أما الفريق الثانى فقد عاشوا فى القرن التاسع ... وتقلدوا المناصب القيادية فى الحكومة . وكانت الخطط التوفيقية أول من ترجمت لهم لأنهم كانوا رفاق المؤلف فى الدراسة فى مصر أو فى فرنسا أو فى زمالة العمل الحكومى . وكانت ترجمته لهم فى ضوء معلوماته عنهم واتصاله بهم . وكان إذا أعوزته المادة التاريخية الكافية لوضع ترجمة أحدهم فإنه كان يطلب منه أن يكتب له ترجمة حياته بنفسه .

والخطط التوفيقية فى تعرضها لتاريخ مصر القومى لم تقتصر على الجانب الاسلامى فقط ، بل شملت الجانب القبطى أيضا فأرخت للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولبطاركة الكر... ة المرقسية وترجمت لكبار الأقباط وأعيانهم . وحرصت على ذكر الكنائس والأديرة القائمة فى مصر . وبجانب اهتمام الخطط التوفيقية بتاريخ مصر القومى فقد عنيت بالتاريخ الإسلامى العام .

لقد كانت الخطط التوفيقية من العوامل التى أسهمت فى نشر الوعى التاريخى فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وساعدت على إيجاد الحاسة التاريخية

(١) ج ١ ص ٣ .

ل ـين ودفعتهم إلى العناية بالتاريخ كعلم بوجه ـيخ مصر فى عصورها المختلفة بوجه خاص . ا على ماسبق نستطيع أن نقرر أن هذه الموسوعة ـاعدت على تغذية الروح القومية وأدرك الشعب الحضارة المصرية هى أم الحضارات وأن له أمجادا يزهو بها فى ميادين العلم والهندسة والفن والثقافة . والجديد فى الخطط التوفيقية هو روح الفحص والنقد والمناقشة عند كتابة تاريخ مصر القومى . ويكفى أن نشير هنا الى موقفين على سبيل المثال . فقد نعت الخطط التوفيقية على الحكومة المصرية تساهلها إزاء شركة قناة السويس حتى ظفرت بامتيازات مجحفة بحقوق البلاد ، كما أنها انتقدت التبذير الشديد فى حفلات افتتاح القناة حتى بلغت نفقات الاحتفال سدس إيراد الحكومة المصرية فى السنة . أما الموقف الثانى فقد ناقش الخطط التوفيقية ما جاء فى كتاب عجائب الآثار ـ خاصا بالعلاقة التى كانت تربط الفرنسيين بنت السيد خليل البكرى نقيب الأشراف م الحملة الفرنسية . وعلى الرغم من ان ـ جائب الآثار استخدم عبارة مهذبة جاء فيها ـينب كانت «ممن تبرج مع الفرنسيس (١) ـكر تفاصيل خارجة عن التقاليد كما فعل ـترك فى مذكراته ، فقد ناقشت الخطط ـوضوع وقالت « ولا التفات لما قاله الجبر ـ لايناسب شرف هذا البيت العالى المقدار ـ سيما والأحوال الجارية فى أوقات الفتن لا يوقف لها على قرار ، ولا تعلم لها حقيقة ، ولا يوصل لها الى أصل صحيح» (٢)

واعتمدت الخطط التوفيقية على العلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه مثل الوثائق والنميات والآثار

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٢ .
(٢) الخطط ج ٣ ص ١١٣ .

والنقوش ، فهذه قل من استعملها من قبل . وإذا كانت خطط المقريزى قد أفادت من الوثائق والنقوش فإن الخطط التوفيقية قد خطت خطوات واسعات فى هذا المضمار فهى تزخر بالكثير من الوثائق التاريخية وحجج الأوقاف والإحصائيات كما أنها تضم جزءاً قائماً بذاته عن النميات هو الجزء العشرون .

وابتعدت الخطط التوفيقية عن العبارات الم وعمدت إلى الأسلوب السهل المرسل ولم تشذ ء القاعدة إلا فى مقدمة الخطط وفى الفقرة ـها هذه الموسوعة . وإذا كانت الخطط على نهج خطط المقريزى ـ رها البعض تكملة بديداً لها إلا أنها ـدر شمولا وعمقاً وإحاط ـرى المصرية القديمة والحديثة كما أنها م تهتم بالجانـ ـياسى فقط ولكنها ـ ـى الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ...

وقد استغرق وضع الـ التوفيقية بضعة عشر عاماً ، فقد طبعت سنة ١٣٠٦ هـ (٦ سبتمبر ١٨٨٨ــ ٢٧ أغسطس ١٨٩) أثناء توليه وزارة المعارف فى وزارة رياض باشا الثانية) ، وقد ظلت فى الحكم من يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ . ولا يتبادر إلى الذهن أنه وضع هذه الموسوعة أثناء توليه الوزارة فلاشك أنه أنفق فى وضعها بضعة عشر عاماً ونستدل على ذلك من عدة أدلة جاءت فى سياق كتابته فمن ذلك أنه تعرض لتطور الحفلات التى أ ـع المصريون فى إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ أقدم الازمنة إلى أسرة محمد على ثم قال » وهاك شرح الجارى الآن يعنى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هلالية »(١)

(١) ج ٧١ص ٣٤.

ووقعت هذه السنة الهجرية فى الفترة التى بدأت من ١٨ فبراير ١٨٧٤ وانتهت فى ٦ فبراير ١٨٧٥

ولنا على الخطط التوفيقية مأخذان هما التكرار والاستطراد. أما التكرار فقد كان يتناول موضوعاً بالبحث ثم يعود إليه فيذكره مطولا أو مقتضباً فى جزء آخر من الأجزاء العشرين التى تتكون منها هذه الموسوعة . ومثل هذا التكرار لا يلحظه القارىء العادى ولكن يلحظه ويسجله الفاحص الباحث . ولئن قيل إن الضرورة هى التى دعت المؤلف إلى العودة إلى موضوع سبق بحثه فقد كان يكفيه أن يحيل القارىء إليه ويتجنب التكرار . وقد وقع هذا التكرار عند ذكر بعض الحوادث وتراجم الشخصيات وفى الأزمات السياسية وتفسير بعض المصطلحات التاريخية . نذكر من صور التكرار حادث العنزة المشهورة التى اتخذها كبير خدم مسجد السيدة نفيسة أداة للدجل والإثراء (ج ٥ ص ١٣٧ ، ج ٨ ص ص ٥٢–٥٣) وإنشاء دار الكتب المصرية ج ٣ ص ١٤ و ج ٩ ص ٥١) وترجمة ذى النون المصرى وهو من صوفية القرن الثالث الهجرى (ج ٥ ص ص ٥٧–٥٨ ، ج ٨ ص ص ٣٩ –٤٠) والأمير عبد الرحمن كتخدا وعمائره (ج ٤ ص ص ١٢–١٣ ، ج ٥ ص ص ١١٦–١١٨ وج ٨ ص ص ٥٣–٥٤) والأمير محمد بك الألفى الكبير (ج ٣ ص ١٠٣ ، ج ١١ ص ص ٢٧–٣٤) والموقف السياسى الدقيق فى مصر عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب (ج ٧ ص ٢٥ ، ج ١١ ص ٤٣ – ٤٦ ، ج ١٢ ص ١١٤) ويشرح معنى « أمير أخور » مرتين (ج ١٠ ص ٨٠ ، ج ١٢ ص ٢٧) .
أما الاستطراد فقد أوغل فيه المؤلف إيغالا بعيداً . ففى الجزء السابع – وقد أفرده لمدينة الاسكندرية – انتقل إلى الكلام عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع على مصر ووقوعه فى الأسر فى موقعة فارسكور . ولعله شعر بهذا الاستطراد فقال « وإنما خرجنا عن الموضوع وأطلنا فى تفصيل حوادث هذه الأوقات ليعرف القارىء ما ورد على الديار المصرية . » (ج ٧ ص ٣٥) ولما تكلم فى الجزء الرابع عشر عن عجرود استطرد إلى نظام قافلة الحج المصرية على نحو ما أوضحناه وقد كتب فى هذا الاستطراد ما يقرب من تسع وعشرين صفحة . ونهج هذا المنهج الاستطرادى عند كلامه على عيذاب ورحلة ابن بطوطة .

ومثل هذه المآخذ لا تقلل من القيمة العلمية لهذه الموسوعة فهى – بتعبير الأستاذ الرافعى – غرة فى تاريخ مصر العلمى ومأثرة خالدة لعلى مبارك باشا (١). والواقع أنها مرجع للباحثين تتناول فى أمانة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى لمصر وطبوغرافية مدنها وقراها وواحاتها وثغورها وموانيها فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة .

* * *

ونختم هذا المقال بنقطة أخيرة خاصة باللغط الذى أثير حول المؤلف الحقيقى للخطط التوفيقية . فقد انطلقت بعض الألسنة تردد أن هذه الموسوعة لم تكن كلها من وضع على مبارك بل كانت هناك مجموعات من مرءوسيه ، وبخاصة المهندسين ، وقفوا وراءه وأسهموا معه فى وضع هذه الموسوعة . وليس هناك دليل يسند هذا الإدعاء . وقد ذكر اثنان من الأساتذة الذين تعرضوا لتاريخ على مبارك هذا القول . ولكن لم يزد دور كل منهما عن أنه porte - parole أى ناقل رواية . فأحدهما ، وهو الدكتور محمد أحمد خلف الله ، أشار إلى « هذه التهمة التى التصقت به »

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول . الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٤٠ .

ثم قرر تعليقاً عليها « ونحن لا نستطيع أن ندعى هذه الدعوى ، ولا نستطيع أن نرفضها ، وإنما نقول إن هذا الكتاب قيم . » (٢) فهو لم يقطع برأى حاسم فى هذا الادعاء بل تخلص منه بلباقة وسرعة وانتهى إلى أن الكتاب ذو قيمة . أما الأستاذ الآخر وهو المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فقد ذكر ما يلى « ولئن قيل إن العلامة على مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه . » (١)

وهو قول فيه دفاع وتبرير على أسوأ الفروض وهو أن الإدعاء صحيح، ولكن لم يناقش سيادته هذا الإدعاء أساساً . وسنحاول أن نناقش [illegible] هذا الرأى بعيدين عن محاباة على مبارك أو التحامل عليه .

إن وضع الخطط التوفيقية قد استغرق منه وقتاً امتد بضعة عشر عاماً ، كما أثبتنا من قبل ، ولو كان المؤلف قد استعان بطائفة من مرءوسيه لاستطاع بفضل معاونتهم وإسهامهم أن يفرغ منها فى زمن يقل بكثير عن هذه السنوات الطوال . ومن المقطوع به أن الكفاية والهمة والجلد على العمل ، كل هذه الصفات كانت من أبرز سجايا على مبارك وقد قرر وهو يترجم لنفسه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلا وذكر فى مقدمة الخطط أنه كان قد عرض على لفيف من ذوى المقدرة العلمية وضع كتاب فى موضوع الخطط فلم يجد منهم استجابة فقام بمفرده بوضع الخطط التوفيقية . وكانت الصورة التى علقت فى أذهان معاصريه أنه الوزير [illegible] العالم الذى يعمل وينتج فى صمت وينأى بنفسه [illegible] المهاترات أو الثرثرة السياسية ولم يلمع فى الحياة السياسية كما سطع فى الحقل العلمى وبرز فى ميادين الإصلاح والتعمير والإنشاء . وليس بكثير على عالم هذه صفاته أن يضع بمفرده الخطط التوفيقية [illegible] لقد رجع على مبارك إلى المخطوطات الرسمية فى وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف وغيرها من جهات حكومية . وفارق كبير بين الاستعانة بأشخاص يؤلفون له وبين الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وهو عبء ثقيل فادح لا يتولاه إلا كل باحث [illegible] بالأصالة والتعمق فى البحث والجلد عليه ، [illegible] لا يستطيع أحد أن ينكره على العالم الباحث على مبارك . وفى رأينا أن هذا الادعاء مرده إلى الحقد والحسد . ومن المعروف أن الناجين فى كل زمان ومكان كانوا وسيظلون دائماً هدفاً لهجوم وحسد الكثيرين . وقد لقى على مبارك فى حياته الكثير من المتاعب بسبب ما كان يحيكه له حساده من دسائس . ففى حكم محمد سعيد أبعد عن مصر سنتين ونصف سنة (١٨٥٤–١٨٥٦) تحت ستار إشراكه فى حرب القرم . وفى حكم إسماعيل أقصى عن المناصب الحكومية فترة فى سنتى ٧٠–١٨٧١ واعتكف فى منزله بسبب وشاية الحاسدين وكان على رأسهم إذ ذاك اسماعيل باشا صديق . وجدير بالذكر أن المقريزى تعرض لمثل هذا الاتهام بعد أن وضع كتابه الخطط فقد اتهم بأنه سطا على مسودات من كتاب للأوحدى فى نفس الموضوع ، فأخذها وزاد عليها ، مع أن المقريزى لم يقصر فى ذكر المصادر والمراجع التى نقل عنها . بل كان يسند كل حادث إلى صاحبه . فلو كان قد اقتبس من الأوحدى لما كان يضيره أن يذكره . وتعرض شمس الدين السخاوى (٩٠٢) لموقف

---

(٢) دكتور محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . لم تذكر سنة الطبع . الناشر : مكتبة الانجلو . ص ١٥٤ .

(١) الرافعى : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٠ .

شبيه لهذين الموقفين . فبعد أن انتهى من وضع كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » تصدى معاصروه للتشنيع عليه ، ومنهم السيوطى ألف فى انتقاده كتاباً سماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » .

ونرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنهض فيه إحدى المؤسسات الثقافية بطبع هذه الموسوعة العربية طبعة حديثة مع وضع فهارس متنوعة لها وشرح بعض العبارات التى وردت بها واندثر الآن استعمالها .

نماذج من الخطط التوفيقية

تعمير ضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية

« وفى أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وثغر الإسكندرية بما حوته من الانتظام والرونق والبهجة فى منازلها وقصورها الجمة وشوارعها وحوانيتها المشتملة على نفائس التجارات بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير منتفع بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان الغيط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لايزيد حكره عن ثلاثة قروش صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالذراع والمتر من ريال إلى نصف بينتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمر الأماكن لسكنى المعتبرين من التجار والأمراء بها ، وبها البساتين المشتملة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها فى وقت الصيف قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك . وأول من اشترى فى الرمل الخواجا سيزينيا (١) ، فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال . وكان لهم أرض متسعة ، جانباً عظيما بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن وقد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفاً فعلى ذلك تكون قيمة الفدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك . ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها إحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الانتقال منها إليها وبالعكس ، ففى كل أوقات السنة لا ينقطع التردد إليها ومن يقيم بها من الأغراب يجد جميع ما تطلبه نفسه خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك ، فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن . وفى الرمل ناد تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ويشنفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة . وبها أيضاً ثلاث كنائس واحدة للكاثوليكيين وواحدة للأروام وواحدة للأمريكيين . ومن المدارس ثلاثة لتربية الصبيان ، واحدة على ذمة الأروام وأخرى للفرنساوية وأخرى للتليانيين . وفى كل ساعة يقوم من اسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى اسكندرية . وفى كل قطر عمال من طرف البوستة لنقل المكاتيب وأوراق الحوادث وغيرها . وأجرة الركاب بحسب الدرجات : فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش . ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ما أحدثه الخديو من المبانى هناك بقصد إقامته وإقامة الفاميليه (١) فى فصل الصيف . فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلول المتقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد وينتهى إلى حدود الملاحة بأول أطيان قرية المندرة ويمر بسراى الرمل

(١) هو زيزنيا Zizinia أحد الرعايا اليونانيين ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلا عاما لبلجيكا فى مصر وكان يطلق اسمه على إحدى محطات ترام الرمل ثم تغير اسم المحطة إلى قصر الصفا .

(٢) يقصد على مبارك بلفظة الفاميلية العائلة أى أسرة الخديو .

الخديوية وطوله من باب شرقى إلى السرايا ٤٠٠٠ متر فى عرض ١٢ متراً ومن السرايا إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر فى عرض ٨ أمتار ، وقد غرس فى جانبيه الأشجار المظلة . » ج ٧ ص ٦٧ .

انشاء دار العلوم

« واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث و فقه على مذهب أبي حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ،ورتب لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف . ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية (١) بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر وأعلن ، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك ، فاختبر منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب ،وساروا فى التحصيل فحصلوا ، وأثمر ذلك المسعى ،وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة » . ج ٩ ص ٥١ .

---

(١) المكاتب الأهلية اسم أطلق على المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت فى عصر اسماعيل طبقا لما ورد فى لائحة رجب ١٢٨٤ وكان يصرف عليها من الموارد الأهلية التى رسمتها هذه اللائحة .